الحَمَاسَةُ

فِيمَا اخْتَار أبُو تَمَّام للشَّاعِرَات

دِرَاسَة فنّيّة

دكتور / زكريا عبد المجيد النوتى

بحث اقترحته اللجنة العلمية الدائمة

لترقية الأساتذة في الأدب والنقد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . والصلاة والسلام على النبى المجتبى، والرسول المصطفى ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى .

وبعد :

فهذا بحث اقترحته اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة في تخصص الأدب والنقد بجامعة الأزهر ، وعنوانه :

(الحماسة فيما اختار أبو تمام للشاعرات ... دراسة فنية)

والحق أننى عقب تسلمى العنوان هممت بوضع خطة للبحث ، وتحديد النقاط التى سأعالجها فيه،وحينئذ وجدتنى في حيرة شديدة .... ذلك أن هذا العنوان يشتمل على عدة محاور :

- أولها : الحماسة .. كفن من الفنون الشعرية ، حظى من اهتمام الشعراء الجاهليين بالقدر الأكبر بين فنون الشعر ، لتعلقه بالحرب والقتال ، وحياتهم كانت قتالا دائما ..
- ثم الحماسة ... كاختيارات شعرية ، في كتاب كامل ابتدعها أبو تمام ، ونهج نهجه من تلاه من أصحاب الحماسات .
- عملية انتخاب الشعر هذه ، وهل كانت موافقة لمذهبه الشعرى ، أم لا ؟ .
- ثم الجديد عنده ..
- الشاعرات اللائى اختارلهن أبو تمام في حماسته من حيث : الترجمة لهن ، وعصرهن ، ومناسبات حماسياتهن ...إلخ .

- شعر المرأة كجانب من جوانب الإبداع ، وأين هو من شعر الرجل ؟ وهل هناك سمات خاصة تميزه عن شعر الرجال ؟ .. إلى غير ذلك .

فإلى أى محور من هذه المحاور تنصرف الدراسة الفنية ؟ وعلى أى جانب ينصب التركيز ؟ .

ثم استقر الرأى – أخيرا – على ألا أهمل محوراً من هذه المحاور ..

ومن ثم جاء البحث على النحو التالى :

الفصل الأول : بعنوان **الحماسة وأبو تمام** ، وهو في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول حول **مصطلح الحماسة** ، ثم الثانى في **حماسة أبى تمام** ... والجديد الذى أضافه في اختياراته الشعرية ، والتسمية ووجهها ، وطريقة أبى تمام في الاختيار، وهل كان موافقاً لمذهبه الشعرى أم مخالفا له ؟ وهل صحيح أن أبا تمام تدخل في تغيير النص ؟ وإلى أى مدى ؟

ثم جاء المبحث الثالث بعنوان : **ظاهرة المقطعات الشعرية** ، ولماذا غلبت على مختارات أبى تمام عامة ، وعلى حماسيات النساء خاصة ؟.

وأمـــا الفصـــل الثانى فكان بعنوان : **الشاعرات في حماسة أبى تمام** وفيه ثلاثـــة مباحث : في المبحث الأول : عالجت فيه قضية إبداع المرأة ، والثانى للرثاء عند المرأة ، ثم الثالث : لنصيب الشاعرات في حماسة أبى تمام .

والفصـــل الثالـــث عـــن : **شعر المرأة في حماسة أبى تمام (عرض موجز)** وقد رتبته حسبما جاء في كتاب الحماسة ، وذكرت فيه مجمل ما دارت حوله كـــل حماسية ، ولم أغفل مناسبة الحماسية لما قبلها وما بعدها حين يكون هناك داعٍ لذلك، ولماذا وضعها أبو تمام هذا الموضع ؟ .

وألحقت بهذا الفصل عددا من الحماسيات ، تخيّرتها وحلّلتها بشئ من التفصيل ..

ثم كان الفصل الرابع – وهو الأخير – **للدراسة الفنية في شعر الشاعرات**

وأتبعـت البحـث **بـكشاف بمواقـع حماسيات الشـواعر** لدى المرزوقى والتبريزى ، ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة .

ويجـدر بـى أن أشـير إلى أن هناك دراسات سبقت هذه الدراسة ، قد تَمُتُّ إلى موضوعنا بصلة ، ومنها :

ـ دواوين الحماسة ـ دراسة فنية ـ عبد البديع محمد عراق .

ـ حماسـة أبـى تمام وشروحها ـ حسين محمد نقشة .. ويغلب عليهما الطابع الإحصائى .

ـ دراسة في حماسة أبى تمام ـ على النجدى ناصف .

أبو تمام بين أشعاره وحماسته ـ محمد بركات أبو على ـ دكتوراه ـ كلية اللغة العربية بالقاهرة .

ـ ودراسة بعنوان (الحماسة في شعر النساء ـ جمع ودراسة ـ الجزء الأول ـ العصـر الجـاهلى) . للزمـيل الدكتور عبده إبراهيم أحمد .. وقد تناول فيها (شعر التحمـيس) فقط ،ونحَّى ما عداه من هجاء ، ورثاء ، وغيرهما .. وهو بذلك قد نحا مـنحًى مخالفا لبحثنا هذا الذى تناول الحماسة بمعناها الواسع ، كما أراد أبو تمام .. كما أن تلك الدراسة اقتصرت على الشعر الجاهلى .

ولعلـى أكون موفقا فيما رجوت وأملت ، وأن يحوز بحثى الرضا والقبول ، ولله الحمد في الأولى والآخرة .....

دكتور زكريا عبد المجيد النوتى

الفصل الأول

الحماسة وأبو تمام

١-الحماسة مصطلحا .

٢-حماسة أبي تمام :

أ. المختارات الشعرية قبل أبو تمام. حماسة أبي تمام [التسمية . وجهها]

ب. طريقته في الاختيار .

جـ. أبو تمام بين مذهبه الشعري ومختاراته .

د. هدف أبي تمام من اختياراته .

هـ. هل غير أبو تمام في النصوص الشعرية ؟

٣-ظاهرة المقطعات .

١- الحماسة مصطلحاً : [١]

قال ابن فارس : الحاء والميم والسين أصل واحد ،يدل على الشدة ، فالأحمس الشجاع ، والحمس والحماسة : الشجاعة والشدة ....." والحماسة : الشدة في الأمر والشجاعة ، والتحمس : التشدد ، وحمس الشر : اشتد. والأحامس : الأرضون التى ليس بها كلأ ولا مرتع ولا مطر ... والأحمس : الورع من الرجال الذى يتشدد في دينه ، وسميت قريش وغيرها حمسا لأنهم تحمسوا في دينهم أى تشددوا ... وحمَّس غيره : شجعه وحرضه

والحماس والحماسة بمعنى. [٢]

وفي اصطلاح أهل الأدب والنقد :

فن الحرب والقتال ، وما ينبغى أن يتصف به الفارس ، ويتحلى به المقاتل من : فروسية وبطولة ورجولة ونخوة وأنفة ،وركوب المخاطر ،واقتحام الأهوال ، ووصف الحرب وما فيها من كروفر ، والدعوة إلى الحرب وإدراك الثأر ، وذم الفرار ، والصبر والتجلد ، والحكمة ، والأناة والحلم ... ويتداخل الفخر والحماسة تداخلا شديدا ، فالفخر ضرب من الحماسة .

وقد نشأت الحماسة " مع العربى منذ كان ، ومنذ ارتمى في أحضان طبيعة قاسية ، جعلته غرضا لأحداث الزمان ، ونكبات الحدثان ، وقد فطر العربى – لذلك – على الشجاعة والقتال ، وأصبح القتال جزءا من حياته الطبيعية ...."[٣]

وحياة العرب في الجاهلية كانت في مسيس الحاجة إلى الحماسة : فهناك كر وفر، و واتر وموتور ، وطالب ومطلوب ... الدهر عندهم شطران :

يقول شاعرهم :

---

[١] يراجع لذلك : اللسان ، القاموس ، تاج العروس ... وغيرها من المعاجم (مادة : حمس) وكذا الشعر الجاهلى – يحيى الجبورى ٢٩٣وغيرها.

[٢] وللدكتور ناصر الدين الأسد مقالة في مجلة مجمع اللغة العربية بعنوان [حماس وحماسة] مايو ١٩٧٤ وقد انتهى فيها إلى أن من يستعمل لفظ [حماس] في كلامه أو كتابته هو بمأمن من التخطئة .

[٣] الفخر والحماسة ص٦ حنا الفاخورى (سلسلة فنون الأدب العربى) الفن الغنائى (٥) دار المعارف .

يُغَار علينا واتِرِين فَيُشْتَفَــى بِنَا إنْ أُصِبْنَا أو نُغِيرُ على وِتْرِ
قَسَمْنَا بذاكَ الدهْرَ شَطْرِين بيننا فما ينْقَضِي إلا ونَحْن علـى شطر[1]

ومـن ثـم كثرت أيامهم ، حتى إن الأصفهانى عدها أكثر من ألف وسبعمائة يوم، ولـذا كانوا في حاجة دائمة إلى من يُذْكي فيهم روح الحرب والقتال ، حتى لا تخمد جذوتها ، ولا تنطفئ شعلتها .

فإن كانوا منتصرين فهم في حاجة إلى من يحمسهم لرد غارة منتظرة ، وإن كانوا مهزومين صاروا أحوج إلى من يُذْكي قرائحهم ، ويثير حفائظهم للذود عن كرامتهم .

وكـان الشـاعر يقـوم بهـذه المهمة ، فهو بمثابة (سلاح الحرب المعنوية) في الجيوش الآن ... ومن ثم كثر شعر الفخر والحماسة في الجاهلية .

وللشـواعر سـهم وافر في هذا اللون من الشعر ، فلقد كان لهن أثر عظيم " في إدامـة الحروب ،وإضرام نار القتال ، فكلما خبَتْ نار حرب سعَّرنها بالتحريض على طلـب الثأر . بل إن عويل النساء وبكاءهن صباح مساء ،هو الذى كان يدفع الرجال للثأر والغارة " . [2]

" ومادام هذا الضرب من الشعر يصور البطولة والمثل العليا للفروسية التى تقوم علـيها حـياة الصـحراء ، كان لابد لهذا الشعر أن يكون ــ مع الغزل ــ في طليعة الفـنون انتشـارا ، وأقربها إلى نفس البدوى خاصة ، والعربى عامة ، ولذلك فليس غريباً أن يكون حظ المجاميع الشعرية من الحماسة هو الحظ الأكبر ....."[3]

* * *

---

[1] البيتان لدريد بن الصمة / حماسة المرزوقى ــ رقم ٢٧٢.

[2] الشعر الجاهلى ٢٩٩ يحيى الجبورى.

[3] نفسه ٢٩٣ ... والنص كذلك في : أدب العرب في عصر الجاهلية ص ١١٩ د / حسين الحاج حسن ــ ط أولـى ١٩٨٤ ــ المؤسسـة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ لبنان . وكتاب الجبورى أسبق ..

٣. حماسة أبى تمام

أ . المختارات الشعرية قبل أبى تمام.

لــم يكــن أبــو تمام أول من قام بعملية الاختيارات الشعرية ، وإنما هى قديمة ، وليست " من ابتكار الإسلاميين ، ولكن الاختيار قديم سبق شعراء الجاهلية إلى نحو مـــنه ، إذ كـــانوا يحتكمون في الشعر إلى قضاة منهم ، فيفاضلون بينهم ، ويقضون لبعضهم على بعض . وكان من قضى له منهم ينْبه اسمه ، ويسير شعره هنا وهناك، وبقيت من ذلك بقية في الإسلام ، تراها احتكاماً في الشعر ، أو استئذاناً في إعلانه ، أو استباقاً في مطارحته وإنشاده " . [١]

* وأول مـــا وصلنا من هذه المختارات الشعرية (المعلقات) ، وأكثر النقاد على أن حماداً الراوية هو الذى جمعها . [٢]

* ثم توالت الاختيارات الشعرية ، فكانت [المفضليات] للمفضل الضبى [ت نحو ١٧٠ هــ] ، [فالأصمعيات] للأصمعى [ت نحو ٢١٦هــ] ...

* ثم كانت [حماسة أبى تمام] التى خالف بها المختارات السابقة ، وهى الرابعة في سلسلة الاختيارات الشعرية.

حماسة أبى تمام:

* كان أبو تمام في طريق عودته من عند (عبد الله بن طاهر) في خراسان، وقد حبســـه الـــثلج بهمذان لدى آل أبى سلمة ، ففتحوا له خزائن كتبهم ، فانصرف يقرأ ويصنّف ، فكانت الحماسة .

* والدكـــتور طه حسين ينفى أن يكون أبو تمام اختار هذه الكتب في شهرين أو ثلاثة ، ولسنا هنا بصدد مناقشة ذلك ، فقد ناقشه غيرنا . [٣]

---

[١] دراســـة فـــي حماسة أبى تمام ص ٧ على النجدى ناصف ، الأدب في حماسة أبى تمام ٧٢ أحمد ماهر البقرى .

[٢] يراجع لذلك : المعلقات ... سيرة وتاريخا نجيب البهبيتى ، مصادر الشعر الجاهلى د / ناصر الدين الأسد، معلقات العرب د / بدوى طبانة ... وغيرها .

[٣] انظــر : من حديث الشعر والنثر ص٩٦ ورد على النجدى ناصف في / دراسة في حماسة أبى تمام ص ١١ ومـــا بعدها وعبد البديع محمد عراق ، في دواوين الحماسة ص ١١٠ وما بعدها ، حسين محمد نقشة في / حماسة أبى تمام وشروحها ص ٨٠ وما بعدها ، ومقدمة التبريزى ص ٠٤

وسواء أجمعها في شهرين أم في أكثر ، المهم أنه خالف من سبقوه في:

التسمية

فلم يطلق عليها(التّماميّات) مثلا، وإنما أطلق عليها اسم [الحماسة] .

على أن الدارسين اختلفوا في ذلك: هل أبو تمام هو الذى سماها ؟ أم غيره ؟

والراجح أنه هو من سماها بذلك ، كما أشار الآمدى في المؤتلف والمختلف ، والمسعودى في مروج الذهب ،والآمدى في الموازنة . [١]

وجهها :

وسماها بذلك :

١- لأن أول باب في الكتاب هو باب الحماسة، فسماه بأول باب ، كما أن بعض سور القرآن سميت بأول آية فيها ، وكذلك فعل الخليل بن أحمد حين أطلق على معجمه اسم (العين) . [٢]

٢- أو لأن الحماسة أكبر أبواب الكتاب ، وأغزرها مادة ، فهو من باب التغليب.

٣- وربما أراد أن يشير إلى أن الحماسة أصل من أصول الشعر ، فهى"النبع الذى فاض منه الشعر الجاهلى في صوره المختلفة " . [٣] والعرب بالحماسة أوْفَى ، ولها أروى . [٤] .

٤- هذه التسمية تواكب طبع أبى تمام وفلسفته في الحياة،فهو يؤمن بمبدأ القوة، ويوقن بأنها السبيل الوحيد لإحقاق الحق ، ورد الظلم ، [٥] يقول الدكتور زكى

---

[١] راجع تقديم عبد السلام هارون لتحقيق شرح ديوان الحماسة جـ١ / ٧ ، دراسة في حماسة أبى تمام/ علـى النجدى ناصف ص١٤ والمؤتلف والمختلف٢٧٦ تحقيق عبد الستار فراج ، ودواوين الحماسة ص ١١٤ .

[٢] راجع تصدير أحمد أمين لشرح الحماسة ص ٣ ، وأحمد ماهر البقرى في / الأدب في حماسة أبى تمام ، وعلى النجدى ناصف ص ١٥.

[٣] الحماسة ص ٤ السباعى بيومى ورفاقه .

[٤] شعر الحرب في أدب العرب ٣١٧ ، ٣١٨ .

[٥] درست ذلك في كتابى (فلسفة القوة في شعر أبى تمام) .

المحاسنى:[١] " إن كتاب الحماسة يدل على أن أبا تمام كان حربىّ النزعة، أو كان يحب شعر الحرب فانتقى أروعه ...."

٥- يبدو أن أبا تمام قارن بين العرب القدماء وعرب زمانه ،فوجد أن النخوة قد ضعفت ، والشدة استحالت ليناً ، فأراد أن يبثّ في أبناء عصره الأنفة والحمية، والصبر في الحرب ، والجلد في ساحة الوغى وحماية الذمار ، يقول " أحمد ماهر البقرى : [٢] وقد تكشف النظرة العجلى أن الحماسة ليست بأولى من سائر الموضوعات بالتقديم ، فضلا عن أن يسمى كتاب بأكمله باسمها ، ولكن هذا الصنيع من أبى تمام يعطينا فكرة عن طباعه ، فهو يعشق القوة والنشاط ، تلك القوة التى تحترم في كل عصر وفي كل أمة ، فالحياة ليست للأصلح فحسب ، ولكنها للأقوى كذلك ، فليس عجيبا أن يوجه اليها الأنظار .

* * *

---

[١] شعر الحرب ٣١٧ .

[٢] الأدب في حماسة أبى تمام ٤٥.

ب - طريقته في الاختيار :

لاشــك أن اختيار الشاعر يخالف اختيار اللغوى وراوية الشعر ، فالأخير يميل إلى الغريب ، وما يخدم مذهبه ، ويشهد لرأيه ويقوى حجته ، قال الجاحظ : [١]

" ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب ، أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كـل شــعر فيه الشاهد والمثل . ورأيت عامتهم ـ فقد طالت مشاهدتى لهم ـ لا يقفــون إلا علــى الألفــاظ المتخـيرة ، والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ... "

وأبــو تمــام هــو الشــاعر المــبدع ، والأديب الموهوب ، ذو الذوق المرهف ، والإحســاس العمــيق ،وهو المجرب الخبير، صاحب المذهب الجديد ، أخبر بمسالك الشعر ودروبه ، وألوانه وضروبه ، لابد أن تكون مختاراته خلاصة ذلك كله ..

قال الآمدى : [٢]

" كان أبو تمام مشتهرا بالشعر ، مشغوفاً به،مشغولا مدة عمره بتخّيره ودراسته . و لــه كتــب اختــيارات فيه مشهورة معروفة ... ومنها اختيار تلقط فيه أشياء من الشــعراء المقلّين ، والشعراء المغمورين غير المشهورين ، وبوّبه أبواباً ، وصدّره بمــا قــيل في الشجاعة ، وهو أشهر اختياراته ، وأكثرها في أيدى الناس ، ويلقب بالحماسة .. "

وقــال الصــولى [٣] : سمعت المبرد يقول : سمعت الحسن بن رجاء يقول : ما رأيت أحدا قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبى تمام .

وإذا كــان اختيار الرجل قطعة من عقله ، فإن حماسة أبى تمام تدل على عقله .. وقد خالف أبو تمام السابقين ، فكان من مخالفاته لهم-إضافةً إلى ما سبق-:

---

[١] البيان والتبيين ٤ / ٢٤ ط الخانجى ـ الرابعة .

[٢] الموازنة ١ / ٥٨ ، ٥٩ تحقيق محي الدين عبد الحميد ط ٢.

[٣] أخبار أبى تمام ٤ .

أ ــ بناء اختياره على أبواب المعانى ، فتبويبه يختلف عن تبويب السابقين .
ب ــ ولــم يكن حاطب ليل يجمع كل ما يظهر له ، بل كان ينظر في القصيدة فينتقى منها أبياتا لغرض في نفسه ، وليس شرطا أن تكون الأبيات متتالية .
جـــ ــ لــم يعمــد إلى المشهور ، بل على العكس ترك المشهور المحفوظ ، وآثر غيره ، ومن ثم لم نجد في الحماسة من المعلقات، أو مشاهير الشعراء ، وبذلك خلّد أشــعارا لــولاه لكانــت فــي طى النسيان، وأسماء شعراء لم يعرفوا إلا بحماسته، وبحماسات من سار على منهجه ، فكان له فضل السبق والريادة .[1]
د ــ إذا كانــت المخــتارات السابقة قد اقتصرت على شعر ما قبل العصر العباسى ــ تعصــباً للقديــم ــ فــإن أبا تمام كان منصفا لشعراء عصره ، حيث أورد للعباسيين حماسيات في مختاراته . [لكن الدارسين لاحظوا أنه تعصب للطائيين فأورد لهم في الحماسة كمّاً لم يورده لغيرهم] [2].

يقول المرزوقى ــ أفضل شراح الحماسة :ــ [3]

" ... وهــذا الرجل لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشعر إلى المتردد في الأفواه ، المجيب لكل داع ، فكان أمره أقرب ، بل اعتسف فــي دواويــن الشعراء جاهليهم ومخضرمهم ، وإسلاميهم ومولدهم ، واختطف منها الأرواح دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام."

جـ- أبو تمام بين مذهبه الشعرى ومختاراته :

ومما يُعْلى من قدر أبى تمام ، ويرفع من شأن كتابه ، ويجعله مقبولاً لدى مؤيديه ومعارضــيه ــ فــي مذهبه الشعرى ــ أنه خالف في اختياره مذهبه في النظم ، وقد أشار المرزوقى إلى ذلك قائلا :[4]

---

[1] مــن هــؤلاء: ريطــة بنــت عاصم ،عمرة الخثعمية ، العوراء بنت سبيع ... راجع : دواوين الحماسة ص ٦٧، ٦٨

[2] أبو تمام الطائى / ٣٢ نجيب البهبيتى .

[3] مقدمة المرزوقى ص ١٣.

[4] نفسه ١٣.

" وأما تعجبك من أبى تمام في اختيار هذا المجموع ،وخروجه عن ميدان شعره ، ومفارقته ما يهواه لنفسه ، وإجماع نقاد الشعر بعده على ما صحبه من التوفيق في قصده ، فالقول فيه أن أبا تمام يختار ما يختار لجودته لا غير ، ويقول ما يقوله من الشــعر بشهوته . والفرق بين ما يُشْتهى وبين ما يستجاد ظاهر ، بدلالة أن العارف بالبزّ قد يشتهى لُبس مالا يستجيده ، ويستجيد ما لا يشتهى لُبسه*. ويقول: " وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه ، لأن ضروب الاختيار لم تَخْف عليه ،وطرق الاستحسان لم تستتر عنه" [١]

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى مغمز أطلقه المرزبانى حين قال : [٢]

" أبو تمام يخدعنا عن أنفسنا ، يقدم لنا مختارات غير ما يحفظ ، وينتفع بما يحفظ لإنــتاجه الشــعرى الخاص ،وللطائى سرقات كثيرة ، أحسن في بعضها ، وأخطأ في بعضــها ، ولما نظرت في الكتاب الذى ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر إحسان الشعراء، وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعضه عدة يرجع إليها فــي وقــت الحاجــة، ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ، ويقنعوا باختياره لهم ، فَتغْبَى عليهم سرقاته " .

وهذا حكم ينبنى على سوء الظن ، ونحن نستبعد ذلك عن أبى تمام ، إنما الهدف هو ما أشرنا اليه آنفا ، من أنه عمد إلى غير المشهور وترك المشهور والمتردد في الأفواه ، مما يحفظه المرزبانى وغيره ...

علــى أن الاختــيار من المشهور المتداول أمر سهل وميسور لكل الناس ، يقول الدكتور فتحى أبو عيسى : [٣]

" إن أبا تمام كان رائده الجودة كما أشرنا ، ولذا لم يقصر مختاراته الشعرية على المشــاهير مــن الشــعراء الموســومين برســوخ القدم فيهم ، وإنما ضرب صوب

---

[١] نفسه١٣ ، ١٤

[٢] الموشح / تحقيق البجاوى ٣٨٣ ــ دار الفكر العربى .

[٣] القضايا الأدبية والنقدية في شرح المرزوقى لديوان الحماسة ص ٢٢٤ ، ٢٢٥.

المغمورين ، أو المطمورين من الشعراء كذلك ، ويعنى هذا أنه احتمل ضروباً من المشقة والعناء في البحث والتنقيب في دواوين الشعراء على اختلاف عصورهم ، وتباين أذواقهم ، وتنوع مشاربهم ، ولولا أن المعنى الذى يحكمه في الاختيار هو الجودة لآثر الاستنامة والركون إلى النابهين من الشعراء المعروفين في أوساطهم ، وهذه الحال قريبة المنال ، سهلة التأتى لأمثال أبى تمام . أما والرجل حفىٌ بالاختيار الجيد ، ومعايشة روح الشعر ، واكتناه جوهره ، وسبر أغواره ، جاءت هذه المجموعة الشعرية التى سلكها في ديوان (الحماسة) بعد أن عجم عودها، وعرضها على ذوقه ، وحاسته الشاعرة الناقدة ، وفي هذا يكمن السر في أن من هذه المختارات الشعرية ما قد يشبه شعره شكلا ومضمونا ، ومنها ما يتدابر معه ولا يتواءم ..."

د. هدف أبى تمام من اختياراته :

إن الدارس لشخصية أبى تمام يمكنه أن يتلمس الأهداف التى رمى إليها من هذه الاختيارات ، ويمكن أن نذكر منها :

١- إرساء مبدأ القوة الذى آمن به ، وإثارة الحماس والحمية في نفوس المعاصرين له من العرب حتى يهبوا للذود عن أرضهم ، والدفاع عن حرماتهم ، لاسيما وقد كان الصراع محتدما مع الروم طوال حياة أبى تمام .

٢- المحافظة على التراث الشعرى ،وذلك بتعمده إلى شعر بعينه لم يورده أصحاب الاختيارات السابقة.

٣- الإسهام في الحركة الثقافية ــ وخاصة الشعرية ــ بوضع النماذج أمام ناشئة الشعراء ليحتذوها وينهجوا منهجها ، وهو بذلك يشارك علماء اللغة في عصره ذلك الهدف ، وإن كان يخالفهم في الطريقة .

٤- كأنــه أراد أن يبرهــن للمعارضــين لمذهــبه الشعرى أنه ليس منبتّ الصلة بالتراث الشعرى ، بل إنه يحفظ منه ما لا يحفظون .

٥- الحيادية وعدم الانحياز في الاختيار ، والتعصب للقديم ، ولذلك أورد لشعراء معاصرين له .

٦- " ليُعيــن الــناس علــى فهم معانى القرآن،بما يورده من أساليب العربية السامية ".[١]

هـ- هل غير أبو تمام في النصوص الشعرية ؟

لعل المرزوقى هو أول من لفت النظر إلى ذلك حين قال في مقدمة شرحه :[٢]

" ... تــراه ينــتهى إلى البيت الجيّد فيه لفظه تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويــبدل الكلمــة بأختها في نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما في اختــياره بها ، ولو أن نقد الشعر كان يدرك بقوله لكان من يقول الشعر من العلماء أشعر الناس ، ويكشف هذا أنه قد يميز الشعر من لا يقوله ، ويقول الشعر الجيد من لا يعرف نقده ....."

ثــم إن المرزوقى قد استدل على ذلك في شرحه للحماسية رقم [١١] لتأبط شرا ، فيقول :

" علــى أنــى نظرت فوجدت أبا تمام قد غير كثيرا من ألفاظ البيوت التى اشتمل عليها هذا الكتاب ، ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه وسلموا له " .

فالمــرزوقى يؤيــد هــذا التغيــير من أبى تمام ، لأنه صادر من شاعر عملاق، وعبقرى مبدع .

لكــن ذلك التغيير ليس عاما ، ذلك أن المرزوقى لم يذكر سوى مثالين فقط، وهذا غير كاف لتعميم الحكم.

---

[١] الأدب في حماسة أبى تمام ٤٣.

[٢] ص ١٤

على أنه من الجدير بالذكر أيضا أن رواية التبريزى تختلف عن رواية المرزوقى ، فالاختلاف في نسخ الحماسة نفسها ، وذلك أمر ينبغى أن يكون في الاعتبار . [١]
ويعد على النجدى ناصف [٢] مسألة التغيير هذه اتهاما من المرزوقى لأبى تمام ، وذلك لأن " تغيير ألفاظ النص ــ مهما كان سببه ، وكائنا ما كان مقداره ــ لا يبقيه خالصا لقائله ، ولا يجعل نسبه إليه صريحا ، وحينئذ تتوزع تبعته فيه أو ثوابه عليه بمقدار ما أصاب ألفاظه من تغير . وهيهات إن كان مما يحتج به أن يطمئن العلماء إليه في الاحتجاج ... وأعتقد أن هذه التهمة غير صحيحة ، لأنها تغض من الرواية ، ولا تتفق أصلا مع طبيعة الحفظ ، ولا مع الغاية التى قصد إليها أبو تمام بتأليف الكتاب " .

ويسلّم أحد الدارسين للمرزوقى [٣] ويلتمس العذر لأبى تمام ، إذ إنه كان شاعرًا جرب مضايق الشعر ، وعرف ما يصلح له وما لا يصلح فيه ، فكان أن عمد إلى هذا المسلك وهو على بينة مما يفعل ، ولو صدر ذلك عن غيره من العلماء الذين لا يحسنون قول الشعر لكان له شأن آخر . "
".... هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نحن نعلم أن أبا تمام واسع الحفظ والرواية للشعر ؛ فلعل هذا التغيير رواية أخرى للشعر قد علمها أبو تمام وخفيت على الأكثرين " .

---

[١] كنت قد انتويت عقد مقابلات بين أشعار النساء في الحماسة ، وغيرها من الدواوين ، والمصادر، لكننى وجدت ذلك غير ذى جدوى لأسباب منها :

أ ــ أبو تمام اختار أشعاراً لشواعر ليست لهن دواوين [باستثناء الخنساء] .

ب ــ أبو تمام كان أول من أورد شعرا لهؤلاء الشواعر ، ومن تلاه نقل عنه في الغالب .

جـ ــ نسخ الحماسة نفسها تختلف فيها الروايات .

د ــ هناك أشعار وشواعر لم يرد ذكرهن إلا في الحماسة .

[٢] دراسة في حماسة أبى تمام ٣٦، ٣٧

[٣] حسين محمد نقشة ص ١٩٣ حماسة أبى تمام وشروحها .

أما الدكتور مصطفى عليان [١] فيشير إلى عدد من الحماسيات غير فيها أبو تمام ، ويعيــب على المرزوقى إعجابه المطلق بروايات أبى تمام المغايرة للنص الأصلى ... وإن كان قد ذكر أن المرزوقى ــ في أحيان قليلة ــ كان يتدخل مصححًا رواية بعض الأبــيات ومصوبا لها ، خاصة في تلك التى أحسّ أن في هناتها منفذًا للخروج على ذوق أبى تمام ومنهجه في الانتخاب .

*　　　*　　　*

---

[١] منهج المرزوقى في الخصومة النقدية حول أبى تمام ص ٢٤ وما بعدها ــ دار القلم ــ دمشق ــ ١٩٨٦م.

٣- ظاهرة المقطعات الشعرية :

غلبت على الشعر القديم عامة ، والحماسات خاصة ، ظاهرة المقطعات ، حتى إننا لنجد الحماسية أحيانا في بيتين ، وربما في بيت واحد ...

وعلل بروكلمان لذلك قائلا[١] لم يعد أحد يطيق الصبر على قراءة القصائد الطوال".

بيد أن ذلك التعليل ينتقض بما ورد في بعض الحماسيات ،إذ قد تصل الحماسية إلى أربعة وأربعين بيتا.

كما أن أبا تمام له قصائده الطوال في ديوانه ...إذاً لابد أن هناك أسبابا أخرى دفعت الشاعر أن ينزع إلى الإيجاز ، أو دفعت أبا تمام أن يختار البيت أو الأبيات من القصيدة ..

ويكشف لنا الشعراء القدماء والنقاد عن سر ذلك :

فهذا الفرزدق يقال له : ما صيّرك إلى القصائد القصار بعد الطوال ؟ فيقول : لأنى رأيتها في الصدور أوقع ، وفي المحافل أجول . [٢] .

وقالت بنت الحطيئة لأبيها : ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ فقال : لأنها في الآذان أولج ، وبالأفواه أعلق . [٣]

وقيل لبعض المحدثين : مالك لا تزيد على أربعة واثنين ؟ قال : هن بالقلوب أوقع ، وإلى الحفاظ أسرع ،وبالألسن أعلق ، وللمعانى أجمع ، وصاحبها أبلغ وأوجز . [٤]

وسئل أبو عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ فقال : نعم ليُسمع منها، قيل : فهل كانت توجز ؟ قال : نعم ، ليحفظ عنها .[٥]

---

[١] تاريخ الأدب العربى ١ / ٧٧

[٢] الصناعتين ١٧٣ ، ١٧٤ للعسكرى ـ تحقيق البجاوى وأبى الفضل ـ المكتبة العصرية بيروت ـ لبنان ١٩٨٦م .

[٣] نفسه .

[٤] نفسه .

[٥] العمدة ١ / ١٨٦ تحقيق محى الدين عبد الحميد

وتكـــثر المقطعـــات فـــي شعر النساء بصورة أبرز ، وقد لاحظ ذلك الدكتور أحمد الحوفى ، وعلله ــ في مجال الرثاء خاصة ــ بقوله : [١]

" ربمـــا كـــان مبعـــث هـــذا فـــي الرثاء تعاطى الموضوع الواحد ،وأن دموعهن وصياحهن وأناتهن تنفس حزنهن تنفيسًا أقوى وأبرز من الشعر ، فيجدن فيها بعض السلوى ، فيؤثرنها على الشعر المطول .

" وأما في شعرهن كله فلأنهن ملولات ، لا يصبرن على قرض الشعر مدة طويلة، والقصيدة المطولة تحتاج إلى جهد وصبر وعزيمة.....

* * *

(١) المرأة في الشعر الجاهلي ــ ص ٦٦٧ ، ٦٦٨ ط ثانية ــ دار الفكر العربى .

الفصل الثانى

الشاعرات في حماسة أبي تمام

١- المرأة مبدعة

٢- المرأة والرثاء.

٣- نصيب الشاعرات في حماسة أبي تمام

(إحصاءات وملاحظات)

١-المرأة مبدعة :

لاحظ الدارسون والنقاد أن النتاج الأدبى للمرأة أقل من الرجل كمًا وكيفًا ، فذهبوا يبحثون أسباب ذلك ، فمنهم من علل هذا بطبيعة الأنثى التى فطرها الله عليها، إذ إن الشـعر خـيال ،والمرأة أقل تخيّلا من الرجل ، ومنهم من رد ذلك إلى عوامل بيئية واجتماعـية ، وآخـرون عـزوا السـبب إلـى المكونـات الثقافـية ومواد الخيال وروافده........

ـ فالعقـاد يقـول [١] : " أول مـا يظهر لنا من اختلاف بين الرجل والمرأة أنه اختلاف بين صفات فاعلة مؤثرة ، تبدو في العزيمة والبأس والصلابة والعمل والغلبة ،وصفات قابلة متأثرة ، تبدو في الصبر والحنو والعطف والنعومة والتسليم ..."

" فطـبائع الـرجل مبـتدئة نـافذة ، وطـبائع المـرأة ملبّـية قابلـة ....."

ويـرى العقاد أن طبيعة المرأة ـ كأنثى ـ تتعارض مع طبيعة الفن ، فالمرأة تخفى شخصيتها في شعرها ، بحيث لا تجد لها خصيصة تميزها عن بنات جنسها .

"لأن المرأة بطبيعتها تابعة مقلدة ، فهى لا تبتكر،فالرجل مبتدع ، والمرأة متبعة [٢]

ولأن المرأة كذلك ـ تابعة مقلدة ـ فإن " شعر النساء لا يخرج في الرثاء عن هذا المعـنى المألوف بين جميع الراثيات والباكيات ،وقوامه النواح على الميت ، وتعداد المناقـب المـأثورة عـن الرجال عامة ، وتكرار التفجع بصورة واحدة ، يتغير فيها بعض الكلمات، ولا يتغير فحوى الكلام .

وتستطيع ـ بغير جهد ـ أن تخلط بين عشرين قصيدة لعشرين شاعرة ، فلا ترى بينها ما يضطرك إلى استغراب هذا الخلط بين عباراتها ومعانيها ،ولكنك تشعر بهذه الغرابة إذا خلطت بين قصائد ثلاث في موضوع واحد من موضوعات الرثاء التـى

---

[١] مراجعات في الآداب والفنون ص١٤٢ ـ المطبعة العصرية بمصر .

[٢] نفسه

ينظمها شعراء الرجال ....." [1] ثم مثل لذلك بأشعار الرجال .

وقريب منه رأى أحمد أمين الذى يقول : [2]

" إن ضـــعف شاعرية المرأة يرجع إلى أن الشاعرية إبداع ، والإبداع في جوهره دعــوة ، والدعوة ثورة ، والثورات وليدة الرجال ، لأنها وليدة الخيال ،وهن يكرهن الثورة ، ويكرهن الخيال ... هن محافظات ، وهم أحرار غالباً ... " هذا فضلا عن أن المرأة العربية قديما لم يُتَح لها ما أتيح للرجل من حرية ، وتعليم وثقافة."[3]

والدكتور يوسف عز الدين يتفق مع ما جاء في كلام العقاد وأحمد أمين،إذ يقول : [4]

" إن هناك فروقا بيّنة بين المرأة والرجل في معالجة الأمور والنظر إليها ، فالمرأة لهـــا نظرتها المختلفة عن نظرة الرجل ، فهى بطبعها الفكرى ، وبحكم واجبها الذى خلقــت له ، تفرض على الحياة نوعاً خاصاً من الأدب لا يمكن للرجل أن يلجه . كما أنها لا يمكن أن تلج موضوعات الرجل وأموره ... والمساواة بين الرجل والمرأة في كل شئ هدر لكرامة المرأة ، فهل يريدونها أن تكون رجلا ؟ ....

" إن مــا خلقــت له المـــرأة يحـــول دون أن تصـــل إلى مستوى الرجل المتفرغ بالطبيعة."

ويقول الدكتور إبراهيم عوضين : [5]

" لقــد كانت المرأة العربية مرتبطة في ذاكرة العربى بالسيف ، فلم تكن إلا عرضاً يحمـــيه الســـيف ، أو يسلبه السيف ، فأصبحت لهذا منهم بمنزلة الذاكرة من وقائع التاريخ ، فهى التى تذكرهم النار وأيام الدم ، وهى التى لا تنسى شيئا مما هيأتها لها الطبـــيعة الاجتماعية في أرضها وقومها ، فلم تعش لهذا إلا في ظلال السيوف ، ولم تمش إلا في الأرض الموحلة بالدماء ، ولم ترفق إلا على الهام والرؤوس . إن كانت

---

[1] بين الكتب والناس ٨٤ ــدار المعارف ــ ط رابعة ١٩٨٥.

[2] فيض الخاطر ١ / ٢٦٣.

[3] نفسه ١ / ٢٦٥ .

[4] في الأدب العربى الحديث ص ٢٦١ دار العلوم ــ الرياض ــ ١٩٨١.

[5] ديوان الخنساء ص ١٣٤ دراسة وتحقيق . مطبعة السعادة ــ ط أولى ــ ١٩٨٥م .

أمًـا لم تلد إلا قاتلا أو مقتولا ، فمن ثم انصرفت عن الشعر إلا في أخص شئونها ، وشغلت عن الخيال بإحساسها الذى لا هم لها إلا أن تستمده من الحادثات لتوقع منه حادثات مثلها ، ولذلك بنيت المرأة على أخلاق شديدة ، تنتهى بها إلى خلقين ثابتين: شدة الجزع ، وشدة الصبر . مما لا يترك للشعر في طبعها إلا مكانا محددا في معان محدودة "

ويرى أحد الدارسين[1] أن المرأة العربية " حرمت من أهم العناصر الأولية للسياق الاجتماعى في عملية الإبداع ، فطريقة تربيتها ، وتعليمها ، ومعاملتها تختلف ــ في بعــض المجتمعات ــ عن الرجل .... لم تكن بيئة الرجل والمرأة واحدة ، وإلا فلماذا وجــد شــاعر القبــيلة والبلاط والمجون ...ولم توجد شاعرة القبيلة ولا البلاط ولا المجــون ؟ ولماذا وجد الملك الضلّيل ، والغلام القتيل ، ونديم الشراب المعتق ، ولم توجد الغيداء المتمردة ، والفتاة اللعوب ، وصاحبة السلاف الممزوج ؟! " .

لقد تضافرت عوامل كثيرة كانت سببا في قلة شعر المرأة من جهة ، وضعفه من جهة أخرى :

ــ فإذا كان ناشئة الشعراء يصقلون موهبتهم عن طريق تتلمذهم على أيدى فحول الشــعراء ، إذ يقــوم الشاعر الناشئ بدور الراوية ، فإن المرأة لم يتوافر لها ذلك ، فنحــن لا نعــرف اسما لامرأة واحدة قامت بهذا الدور ، وبالتالى حرمت من الصّقل والدّربة .

ــ لم يُتح المجتمع للمرأة أن تبوح بكل مشاعرها ، فأين غزل النساء ؟ إن [ولادة بنت المستكفى] حين باحت بمشاعرها ــ إن صحت نسبة ذلك الشعر اليها ــ عدّ ذلك خطيئة منها .

ــ بــل إن إنشــاد المرأة أمام الرجال لم يكن متاحا كما كان للرجل ، ولذا لم نجد شــواعر يذهبن إلى عكاظ وينشدن ، فيحكم لهن أو عليهن ــ عدا الخنساء ــ ، كما أننا لم نجد معلقة لامرأة بين السبع أو العشر .

ــ مادة الخيال وروافده ومشاهد الطبيعة بالنسبة للرجل أرحب وأوسع ، ذلك أن المــرأة لــم تركب ناقتها وتمضى في الصحراء ، فترى ما يراه الرجل من جبال وتلال ،وصخور ورمال ، وثور وحمار ، وظليم وقطاة ، وذئب وأسد .. كما أنها

---

[1] النثيرة والقصيدة المضادة ٢٧٣ ، ٢٧٤ ــ محمد ياسر شرف ــ النادى الأدبى بالرياض.

لـم تركـب فرسـاً وتشارك في القتال ، وبذا أصبحت دائرتها ضيقة ، وخيالها محدودا .

بيد أن بعض النقاد والدارسين يحمّلون رواة الشعر وزر ضياع شعر المرأة ، ويرون أن المرأة أنتجت وأبدعت ، لكن العصبية ضدها حالت دون وصول شعرها إليـنا : فهـذا الدكتور : أحمد الحوفى[1] يرد قلة شعر النساء إلى عدة عوامل، نوجزها فيما يلى :

ــ حـرص الـرواة وجـامعى الأشعار ــ في عصر الجمع والتحصيل ــ على الغريب، وإيثارهم الفحولة والجزالة في الشعر ، ولم يجدوا ذلك في شعر المرأة .

ــ وحـدة الغـرض في شعر المرأة حال دون روايتهم شعرها ، لحرصهم على التقاليد الشعرية في بناء القصيدة.

ــ كـان الشاعر لسان قبيلته ، المذيع لمحامدها ، الذائد عن أعراضها ،ولم تكن المرأة لتقوم بهذا الدور ، فلم يجد المؤرخون بغيتهم في شعر المرأة

ــ تعصـب الـرواة والإخباريين ضد المرأة ، مع اعترافهم بإجادتها في بعض الفنون ولا سيما الرثاء .

ــ ضياع كثير من الشعر الجاهلى ،ومنه شعر المرأة .

ــ أهم أبواب الشعر الجاهلى ما يتصل بالحروب ، وهى ميدان الرجل .

والدكـتورة بنت الشاطئ ــ مدافعة عن بنات جنسها ــ ترى أن المرأة لم يُتح لها المجـال الذى أتيح للرجل ، ومع ذلك كان لها إسهامها الأدبى بإزاء الرجل ، غير أن

---

[1] المرأة في الشعر الجاهلى ٦٠٤ وما بعدها ــ ط ثانية ــ دار الفكر العربى ، وقد كرر كثيرا منه في كتابه أضواء على الأدب الحديث في مبحث بعنوان [المرأة الشاعرة من ص ٢٦١ إلى ٢٧٨ وركز على سمات شعر المرأة ، وتابع الفريق الأول في أن طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل .

الرواة والمؤرخين هم الذين حالوا دون وصول نتاجها إلينا ،[١] فالذين قاموا بالجمع والتدوين في العصر العباسى رجال من بقايا الجاهلية . [٢]

ويبقى الواقع شاهدا على صحة ما ذهب إليه العقاد ومن شايعه ، فالمرأة تابعة ، حـتى فـي قضاياها الخاصة بها ، وإلا فلماذا لم تتصدر قضية ما سمى بـ (تحرير المرأة) واحدة من النساء ؟ وإنما يتصدى لها قاسم أمين ـ إن صح أنه مؤلف ذلك الكتاب ـ ؟ !

والمـرأة ليست مبتكرة ، فنحن حين نستعرض أسماء المخترعين والمكتشفين لا نجد سوى (مدام كورى) أو (مارى كورى) ، بينما الرجال كثير .

كما أن الصناعات الخاصة بالمرأة لم تشتهر بها امرأة، وإنما نجد رجالا يتقدمونها في عالم الطهى وتصميم الأزياء ... إلخ .

وفي أوربا أطلقت الحرية للمرأة ، وفي بعض دول الشرق ،فهل تفوقن في الإبداع كما تفوق الرجل ؟ كلا ،ولن يكون .

وتبقى الأسئلة تقطع بأن المرأة أقل إبداعا وشاعرية من الرجل في كل العصور:

"هل في الشاعرات من بلغت في الحماسة درجة عنترة بن شداد ؟

هل فيهن من بلغت في الفخر درجة عمرو بن كلثوم ؟

هل سمت شاعرة في الإشادة بماضى الأمة المجيد إلى سماء أحمد شوقى؟

وهل ..... وهل ....."[٣]

* * *

---

[١] الشاعرة العربية المعاصرة ص ٥ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م.

[٢] نفسه ١٨

[٣] أضواء على الأدب الحديث ٢٧٧ ، ٢٧٨

٣-المرأة والرثاء:

يقول ابن رشيق:[١]

" والنساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة ، وأشدهم جزعا على هالك، لما ركّب الله ــ عزل وجل ــ في طبعهن من الخَوَر وضعف العزيمة "

فالــرثاء " هــو المجــال الفسيح الذى تطلقت فيه عواطف المرأة ، لأنه نوع من الــنواح والبكاء ، وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها ــ أول ما تلجأ ــ إذا حزبها الدهر ، أو كــربها القضاء ، وإنها لتلتذ الحزن وتستديمه، وتوالى البكاء وتستطيله ، وفاءً وحسرة ، أو ضعفاً ورقةً ، ثم تنفس عن نفسها إن كانت شاعرة بمقطوعات تسكب فيها لوعتها وحرقتها ". [٢]

أمــا الــرجل فإنه يرى البكاء دليل ضعف ، وعلامة خور ،ولذا نجدهم يفاخرون بتماسكهم وعدم انهيارهم أمام المصائب ، يقل أبو ذؤَيب في عينيته :

وتجلدي للشامتين أريهم ... أنـي لريب الدهر لا أتضعضع

وقال عمرو بن كلثوم :[٣]

معاذ الله ان تنوم نساؤنا ... على هالك أو نضج من القتل

ولهم في ذلك الكثير ..

بل إن كارل بروكلمان يقول :[٤]

" لعــل المرثية الأولى نشأت نشأتها الأولى من ندب النوائح المجرد من القوالب ، ولهذا غلب تعهده بعد ذلك على النساء ....."

ويقول الرافعى :[٥]

---

[١] العمدة ١٥٣/٢ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ــدار الجيل ــ بيروت ــ ط خامسة ــ ١٩٨١ .

[٢] المرأة في الشعر الجاهلى ٦١٢ د / أحمد الحوفى .

[٣] الحماسة / شرح المرزوقى ٤٧٤/١ برقم ١٦٠.

[٤] تاريخ الأدب العربى ١١٤/١ ترجمة د / عبد الحليم النجار ــ ط دار المعارف ــ الرابعة .

[٥] تاريخ آداب العرب ٣ / ٦١ ــ ط أولى ــ الاستقامة .

" ولا يهولنّك كثرة أسماء النساء اللاتى قلن شعرا ، فعمود الشعر عندهن الرثاء ، وليس لهن إلا المقاطيع والأبيات القليلة ، ولم تبن منهن إلا الخنساء وليلى الأخيلية".

في حين يرى باحث آخر أن اختيار نماذج من شعر النساء ، يتلامح فيها النشيج واللوعـة ، لا يبرهـن أن هذه السمة هى السمة الغالبة على شعر المرأة عامة ، أو أنها خصيصة لازمة ...." [١]

" ويبدو أن رواة الشعر العربى قد أنفوا ، أو استكبروا على أنفسهم أن يرووا لنا عـن الشواعر من النساء ما قلن في جميع تفاريع الحياة وتفصيلاتها ، ووقفوا أكثر ما رووه ـ مما هو معروف لدينا ـ على الرثاء والفخر بالقوم . إذ لابد أن الشواعر قـد نظمن في موضوعات غير هذه ، وتداولنها ولو بشكل سرى ـ أحيانا ـ بسبب العادات والتقاليد ، أو امتنع الرواة عن نقله ،لأنه من أمور النساء. " [٢]

لكـن يوسف اليوسف يذهب إلى غير ذلك ، حين يرى ـ بحكم الواقع [٣] ـ" أننا نملـك مـراثى قرضتها سبعون امرأة ، اشتهرن بأنهن شواعر ، لا تنسب إليهن في الغالب الأعم إلا قصائد رثائية ... مما يعنى أن الرثاء كان وظيفة المرأة في المجتمع القـبلى ، بحكـم حـرارة عاطفتها ، وحضور دمعتها . وأغلب الظن أن هذه التقاليد الرثائـية موغلة في القدم .... وقد تدخل مسألة تكليف المرأة بالرثاء في باب تقسيم العمل في المجتمعات الرعوية .

ولعل السبب في اضطلاع النساء بالرثاء ـ إضافة إلى التقاليد المشار إليها ـ أن "الـرثاء الجـاهلى يقـوم على استنهاض الرجولة ابتغاء الثأر للقتيل ...وهو أمر قد تجـيده الأنوثـة أكـثر ممـا تجـيده الذكورة ، وذلك نظرًا لقابلية الرجل للاستفزاز والاستنفار على يد المرأة التى يجد فيها إحياءً وإيقاظاً لقدراته ".

---

[١] النثيرة والقصيدة المضادة ص ٢٥١ محمد ياسر شرف ـ النادى الأدبى / الرياض .

[٢] نفسه ٢٥١.

[٣] مقالات في الشعر الجاهلى ٣٣١ ـ ٣٣٣

أضــف إلــى ذلك " قدرة النساء العجيبة على البكاء والتفجع الأمر الذى لا يجيده الــرجال من جهة ، والذى يخلق جوًّا تحريضيا انتقاميا عبر استجابة الرجال للموقف الفجائعى القادر على تطوير الشعور . ولعل حلقات الندب على الميت ، التى تقوم في بعـض أريافنا إلى اليوم هى من موروثات تلك الحقبة البدائية واستمرار لذلك التقليد الذى كان يستهدف غرز الرغبة في الثأر للصريع داخل نفوس الأحياء . " [1]

خلاصة القول : أن شعر المرأة أقل من شعر الرجل كما وكيفا ، وأن أغلب شعرها إنما هو في الرثاء ، وهى إن أجادته إلا أنها فيه مقلّدة ...

* * *

---

[1] نفسه .

٣-نصيب الشاعرات في حماسة أبي تمام

إحصاء

م	الباب	مجموع الحماسيات	نصيب الشواعر
١-	الحماسة	٢٦١	٧
٢-	المراثى	١٣٩	٢٤
٣-	الأدب	٥٤	١
٤-	النسيب	١٣٩	٢
٥-	الهجاء	٨٠	٧
٦-	الأضياف والمديح	١٤٣	١١
٧-	الصفات	٣	-
٨-	السير والنعاس	٩	-
٩-	الملح	٣٨	٧
١٠-	مذمة النساء	١٨	-
	المجموع	٨٨٤	٥٩

ويلاحظ على هذه الإحصائية ما يلى :

١- أكثر حماسيات النساء في باب المراثى ، يليه باب الأضياف والمديح ، ثم الهجاء والحماسة ، ثم الملح ، فالنسيب ، وأخيراً الأدب .

٢- أن أبواب الصفات ، والسير والنعاس ، ومذمة النساء ، خلتْ من حماسيات النساء

٣- إذا كان مجموع الحماسيات ٨٨٢عند المرزوقى ، ٨٨٤ عند التبريزى فإن النسبة المئوية لنصيب الشواعر من هذه الحماسيات ٦,٥ % تقريبا .

٤- هناك شواعر أورد لهن أبو تمام أكثر من حماسية ، وهن :ـ

أـ ليلى الأخيلية ثلاث حماسيات .

ب ــ كنزة أم شملة بن برد المنقرى ثلاث حماسيات .

جــ ــ عاتكة بنت زيد حماسيتان .

د ــ فاطمة بنت الأحجم الخزاعية . حماسيتان.

وبقية الشواعر لكل منهن واحدة ، ومن العجيب أنه لم يورد للخنساء سوى حماسية واحدة ، والأعجب أنها ليست في باب المراثى ، وإنما في باب المديح والأضياف .

٥ -أورد أبو تمام في باب المراثى ثمانى حماسيات متتالية للشواعر

ــ وفـــي باب الأضياف والمديح أورد حماسياتين متتاليتين لليلى الأخيلية ، ثم أربعا أخرى في آخر الباب لشواعر ...

وهذا يحدونا أن نقول إنه كان ينبغى أن يورد حماسيتى (عاتكة بنت زيد) متتاليتين في باب المراثى .

* * *

الفصل الثالث

شعر المرأة في حماسة أبى تمام

(عرض موجز)

١- باب الحماسة .

٢-باب المراثى .

٣- باب الأدب .

٤-باب النسيب .

٥-باب الهجاء .

٦-باب الأضياف والمديح.

٧- باب الملح .

حماسيات الشواعر

(عرض موجز)

أولا : باب الحماسة .

مجمــوع حماســيات هــذا الباب إحدى وستون ومائتان ، سهم النساء فيها سبع حماسيات .

١-الحماســية الأولــى لامــرأة من طيئ [١] في العصر الأموى ، وهى في أربعة أبيات، تستحث قومها ، وتحرضهم على إدراك ثار أبيها (بهدل بن قرفة الطائى) ، وتقــول : مَــنْ فــتًى جرئ مقدام ينهض بذلك ، ويقتل (جبراً) ذلك القاتل ، الذى لا يكافئ أباها ، وليس بواءً به ... بيد أن الإسلام لا يحلّ قتل أكثر من واحد بواحد .

وهذه الحماسية وردت ضمن أربع حماسيات ، كلها في موضوع واحد ، وهو عدم قــبول الدية ، والدعوة إلى الأخذ بالثأر ، " وقد قصد أبو تمام جمع هذه الحماسيات متتابعة ، لأنها تتحدث عن هذا المعنى الجزئى الواحد ".[٢]

٢-وثانــية الحماســيات لــ (كبشة) ، أخت عمرو بن معد يكرب [٣]، وهى خمســة أبــيات ، تحرّض عمرًا أخاها للثأر من قتلة أخيه (عبد الله) ، وتثير حميّة القــوم ، وتدفعهم دفعاً ألا يستجيبوا لعمرو إن هو فكر في قبول الدية ، وأن يقوموا هم بما عجز عنه .

وتشــبه القــوم بالنســاء إذا تقاعسوا ..وقد ألحّت في ذلك التحريض إلحاحاً شــديداً ، وهدفت من وراء ذلك إلى تضييق الحصار عليهم حتى تسد كل باب للتفكير في الصلح . (وهى من الحماسيات الأربع المشار إليها)

---

[١] برقم ٤٩ عند المرزوقى ، وبرقم ٥٠ عند التبريزى .

[٢] دواويــن الحماســة ٣٨٨ عــبد الــبديع محمــد عــراق ، والحماســيات المشــار إلــيها بأرقــام (٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ،٥٢)

[٣] برقم ٥٢ في المرزوقى ، ٥٣ في التبريزى .

٣، ٤ ـــ ثـــم تـــأتى حماســـيتان متتاليتان [١] لـــ (كنزة) أم شملة بن برد المنقرى ، كلتاهما من بيتين ، وهما متشابهتان جدا ، ويبدو أنهما في الأصل واحدة، وذلك :

- لأنهما من بحر واحد وهو (الطويل) .
- فيهما تكرار ، فالبيت الأول في أولاهما نصه :

إن يك ظنى صادقا ، وهو صادقى   بشملة يحبسهم بها محبسا أزلا

والبيت الثانى في ثانيتهما نصه :

فإن يك ظنى صادقاً ، وهو صادقى   بشملة يحبسهم بها محبساً وعرا

- فيهما تحفيز لابنها شملة ، وإكبار من شأنه ، وإعلاء من قدره ، وبث روح الثقة فيه لينهض بالثأر .

٥-الحماســـية الخامسة للنساء في هذا الباب لـــ (عاتكة بنت عبد المطلب)[٢] ، وهى من ستة أبيات ، يغلب عليها الفخر بقومها ، وبما حققوا من نصر على أعدائهم الذيـــن جمعـــوا الجموع ، وحشدوا الحشود قاصدين قريشاً ، وكان على رأس قيس المعـــتدية كبيرهم الذى تبرق بيضته ، وتلمع لمعاناً يكاد يغشى الناظرين .. من هنا كان النصر عزيزًا ...

لقـــد قتلـــنا ذلك الرئيس ، وفرّ مناصروه لما رأوا من شدتنا وعظم بلائنا .. وقد غادر جندنا الميدان مخلّفين جثث القتلى نهشاً للضباع .

٦-والحماسية السادسة غير منسوبة ، وهى لامرأة من بنى عامر [٣]، في أربعة أبيات ، وهى فريدة بين حماسيات النساء ، ففيها تحذير من الحرب وأعقابها ، لأن

---

[١] في المرزوقى برقمى ٢٤٠ ، ٢٤١ ، والتبريزى برقى ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

[٢] في المرزوقى برقم ٢٥٠ ، والتبريزى برقم ٢٥١ .

[٣] في المرزوقى برقم ٢٥٢ ، والتبريزى برقم ٢٥٣.

هذه الحرب بين أبناء عمومة ، وكم فعلت الحروب بين أبناء العمومة مما رآه العرب واصطلوا بناره !!

لقد أدركت الشاعرة أن أمارات الشر قد أطلت برؤوسها ، ونذر الحرب قد لاحت،إذ استبدل القوم بالتحاب تباغضًا ، وبالتعاطف تدابرًا ، وبالتناصر تخاذلاً ، مع أنهم من جرثومة واحدة ...

وتوقعت أن يكون القوم في هذه الحرب بين فريقين : أحدهما سيعتزل الحرب إذ يرى أنه لا ناقة له فيها ولا جمل ، والثاني ـ وهم مضرموها ـ سيكتوى بنارها ، ويصلى لهيبها .

وإذا كانت الحماسة تحريضاً على القتال ،وحثاً على اقتحام الأهوال ، وهذه الحماسية تنفر من الحرب ، وتبغّضها إلى القوم ، فلماذا وضعها أبو تمام في باب الحماسة ؟

يرى أحد الدارسين [١] : أن أبا تمام ذكرها هنا ، لأن الحماسية التى تسبقها والمرقمة ٢٥١ لعبد القيس بن خفاف ، تذكر الحرب ، والشاعر يفخر بسلاحه وقوته، وشدة وقعه بالأعداء ، وكأن أبا تمام أوردها هنا لتكون ردًا على السابقة .

ويقول باحث آخر [٢] إن " أصحاب الحماسات استخدموا طريقة جديرة بالاهتمام ، تدل على الذوق الفنى الرفيع لديهم ، وتدل على منهجهم في السعة والشمول في الاختيار ،وذلك أنهم كانوا يثبتون حماسية في باب من الأبواب ، ثم يتبعونها بأخرى تحمل معنى مضادًا ليظهر الفرق بين الموقفين .. "

وأرى :

* أن الحماسية فيها تنفيرٌ من الحرب ، وتحذير من إشعالها ، ولكنها الحرب بين أبناء العمومة التى ستكون نتيجتها ضعف شوكتهم ، وذهاب ريحهم، فيصبحون

---

[١] حسين محمد نقشة في / حماسة أبى تمام وشروحها ١٠٥ ـ ط هيئة الكتاب .

[٢] عبد البديع محمد عراق في / دواوين الحماسة ٣٩٥.

مطمعا لكل القبائل الأخرى ، ولن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ، والذود عن أرضهم، فهى لم تَنْهَ عن حرب بين قبيلتها وقبائل أخرى، بل على العكس ..

* فـي الحماسـية حديـث عن الحرب التى لابد منها ، حيث يشعلها ذوو الأحلام الصفرات ، وحينئذ لا مفر من اقتحامها ، وبالتالى فهى تنبه قومها الأدنين أن يأخذوا حذرهم ، فيستعدوا لتلك الحرب إن فرضت عليهم فرضاً .

* الحماسـة ــ كمـا أراد أبو تمام ــ ليست بالمعنى " الضيق المحسوس من الكر والفـر والإيقاع بالأقران ،ولكن ينظر إلى معناها العام ، وإلى بعض ما يتفرع عليها من خصال : كالنخوة ، والصبر على الأرزاء والمحن ..." [١]

وعليه ، فإن هذه الحماسية تدخل باب الحماسة من أبواب شتى ، ومنها : الصبر علـى الأقارب وأبناء العمومة ، واحتمال أذاهم ، والحلم على جهلهم ،والتغاضى عن هفواتهم .. فضلا عن الحث على التهيؤ للحرب .

٧-والسـابعة ــ وهى الأخيرة للشاعرات في هذا الباب ــ لأم ثواب الهزانية[٢]، تعالج قضية العقوق ... وهى في ستة أبيات .. تذكر فيها الأم جهادها في تربية ابنها ــ الـذى يبدو وحيدها ــ ، فقد وقفت حياتها عليه ، وانقطعت من كل شئ إلا له ، وكانـت له أمـا وأبـا فـي آن ... ظلت ترقب حياته، وتتشوف إلى مستقبله الذى سيعوضها فيه ــ وهى عجوز حينئذ ــ عن حرمانها، وترسم له صورة وهو يبرها ، ويشكر صنيعها ، تقديرًا وعرفانًا .. لكن الصدمة كانت عنيفة ، فما أن كبر واستوى عـوده ، وصـار رجلاً ، وتزوج ... إذا به يضربها ، ويمزق ثيابها ، كأنما يريد أن يؤدبها ... وزاد الطين بلة سلوك زوجته التى هى مثل الحية ، ناعم ملمسها ، خبيثة طويتها ، قاتلة لدغتها .. إنها تحاول أن تظهر أمـام زوجها أنها حانية على أمه ،

---

[١] دراسة في حماسة أبى تمام ٢٢ على النجدى ناصف.

[٢] برقم ٢٥٥ عند المرزوقى ، ٢٥٥ عند التبريزى.

بينما هى تثير حفيظة الأم ،لأنها تعرف حقيقتها .. فما علاقة هذه الحماسية بالباب ؟

قـال المـرزوقى[1] فـي آخر حماسية أمية بن أبى الصلت ، وهى تعالج القضية نفسـها : " فـإن قيل : بما ذا دخل هذه الأبيات وما يتلوها ــ وهو في معناها ــ في باب الحماسة ؟

قلـت : دخلتْ فيه بالمشاكلة التى بينها وبين ما تقدمها من الأبيات ، المُنبئة عن المُفاسـدة بيـن العشـائر ،وما يتولد فيها من الإحن والضغائن ، المُنسية للتواشج والتناسـب ، المنشـئة لهتك المحارم ، المبيحة لسفك الدماء وقطع العِصَم ، إذ كان عقوق البنين للآباء ، وتناسى الحُرم ، فيه مثلُ ذلك ، وهو ظاهر بين."

ولله در المـرزوقى !! . إن أصـل التلاحم والتواشج إنما يكون بين الابن وأبيه ، وإلا فلما ذا كان الرجل في الجاهلية يستبشر حين يولد له ذكر ، ويظل وجهه مسودا وهو كظيم حين يبشر بأنثى ؟! إنه سنده وظهره في ذلك المعترك الجاهلى ... وحين يعـق الابـن أبـاه فقد فقد الأب حينئذ كل ذلك ، فالعلاقة منفصمة عراها ، متقطعة أوصـالها ، وهـى مزق وأشلاء ... ومن عق أبويه قطع رحمه وإذا تقطعت الأرحام فعلى الدنيا السلام .. وإنها للحرب بين أبناء العم ، فلم تعد هناك أواصر رابطة ، أو صـلات جامعـة ... وما ذاك كله إلا لانتقاض الأساس وهو الأسرة الصغيرة ، قوام المجتمع ، وأولى لبناته ، وحجر أساسه .

ولم تكن هذه المعانى كلها بمبعد عن أبى تمام ، الذى رأى في عصره ما رأى من جفوة وعقوق وقطيعة رحم .. فكأنما أراد أن يرد المجتمع إلى أساس قوته ، وأصل وحدته ..

وعلاقة الابن بأمه أوثق ، وأعلى درجة ، وأسمى منزلة .. وهو بيّن ، ومن عق أمه عق قبيلته ورهطه ، وقطع رحمه .. فلا خير يرجى منه لهؤلاء وأولئك .

* * *

---

[1] المرزوقى ٧٥٦

ثانيا : المراثي .

واكتسب الرثاء أهميته من علاقته بالحماسة التى هى أهم موضوع لديهم ، فبينهما صلات واضحة ، وروابط قوية ، إذ كانوا يرثون أبطالهم في قصائد حماسية، يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم ، يمجدون خلالهم ، ويصفون مناقبهم التى فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من قتلوهم ، وشحذ سيوفهم استعدادًا لجولة جديدة تطفئ نار غيظهم ..

ولقد اعتمد العرب الشعراء في الرثاء على نياحة النساء ، فقد كنّ مازلن ينُحْن على القتيل حتى تثأر القبيلة له . وقام النساء بالقسط الأكبر في ندب الميت وبكائه ، فكن يشققن جيوبهن عليه ، ويلطمن وجوههن ، ويَقْرَعْن صدورهن ، ويعقدن عليه مأتما من العويل والبكاء .[1]

وهذا الباب هو ثانى الأبواب في ديوان الحماسة ، من حيث عدد الأبيات ،ومن حيث ترتيب الأبواب .. ولكنه أكبر الأبواب بالنسبة لحماسيات النساء ، وبذلكساير أبو تمام الاتجاه الغالب عند الدارسين والنقاد ، والواقع كذلك إذ إن الفن الأول هو الرثاء ، حيث أورد لهن أربعا وعشرين حماسية من مجموع حماسيات الباب . وهى تسع وثلاثون ومائة .

وكونْ المراثى ثانى الأبواب بعد الحماسة فيه إشارة من طرف خفى — من أبى تمام — إلى أن " موت الأحبة والخلان ، وفقدان الولد والإخوان ، نتيجة طبيعية من نتائج تلك المعارك ، والوقائع والأحداث في باب الحماسة ..."[2]

١-المرثية الأولى : لامرأة من بنى شيبان ، وهى (بنت فروة بن مسعود)[3]، في بيتين فقط ، ترثى فيهما (فروة وقيسا) ابنى مسعود بن عامر بن أبى ربيعة ،

---

(١) ديوان الخنساء .. دراسة وتحقيق ١٣٣ د / إبراهيم عوضين ، والعصر الجاهلى ٢٠٧ د / شوقى ضيف، والشعر الجاهلى ٣١١ يحيى الجبورى ... وغيرها .

(٢) دواوين الحماسة ٢١٩

(٣) المرزوقى برقم ٢٩١ ، التبريزى برقم ٣٠، وتروى لابنة المنذر ترثى أباها حين قتله شمر بن عمرو الحنفى في محاربة الحارث بن شمر الأعرج الغسانى مع المنذر يوم (عين أباغ) . انظر : أيام العرب في الجاهلية ٥١ ، رياض الأدب / لويس شيخو ٥٦ ، ٥٧.

وقـتلا مـع المنذر ذى القرنين يوم (عين أُباغ) ... وترد فيهما على فخر الأعداء بقـتلهم ماجدًا كريمًا ، فتقول : (كذاك الرمح يكلف بالكريم) ، أى أن الرماح تتعشق أماجد الناس وخيارهم وأفاضلهم ،كما قال طرفة : [١]

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

٢-والثانية [٢] لـ (فاطمة بنت الأحجم الخزاعية) [٣] ترثى أخاها ،أو زوجها ــ وهـو الراجح ــ في ستة أبيات ، وكان قد قتل (يوم الحُرَيْرة) وهو أحد أيام (الفجار الثانى) ، الذى انتصرت فيه قيس عيلان على كنانة وقريش .

وتطلب الشاعرة إلى عينها أن تجود بالدمع عند كل صباح ، وذلك لأن الصباح هو وقـت الإغارة ، فهى تخشى ــ بعد فقد المحامى والذائد ــ غارة من قبيلة مع طلوع النهار .. فمن لها حينئذ.؟ . ولذا ذكرت بعده أن (الجراح) كان لها (جبلا) تلوذ به ، وتأوى إلى كنفه ، وتحتمى بسلطانه ، وتفئ إلى ظله ، فحين فقدت جبلها راح عزها، لأن (عزيز القوم من عز ناصره) كما قال البحترى .

أو أن الصباح " هو وقت نكايته في الأعداء ،وشن الغارات على المنابذين .."[٤]

وكان الفقيد جناحها الذى تطير به ، فهيض الجناح ، فأنى لها أن تنهض؟! .

ولذا صارت عرضة للمخاطر ، وأصبحت ذليلة ، تغض بصرها انكساراً.

٣- والمرثـية الثالثة لها أيضا [٥] ــ في أربعة أبيات ــ ترثى إخوتها الذين قتلو (يـوم الحُرَيْـرة) كذلك ، وتتحسر فيها على إخوتها لأنهم لم يعقبوا أولادا يرفعون

---

[١] البيت من معلقته .

[٢] في المرزوقى برقم ٣٠٨ والتبريزى برقم ٤٧.

[٣] اخـتلفوا هـل هـى جاهلية أم إسلامية ؟ فذكر لويس شيخو أنها جاهلية (رياض الأدب ٦٦ ، ٦٧) ، والأبـيات مذكورة في أيام العرب في الجاهلية (يوم الحُرَيرة) ص ٣٣٩ ... بينما ذكرها بشيريموت ضمن الإسلاميات (شاعرات العرب ١٦٤) .

[٤] المرزوقى ٩٠٩.

[٥] المرزوقى برقم ٣٠٩ ، والتبريزى برقم ٤٨ .

الراية من بعدهم ، ويحمون مجد القبيلة بعد آبائهم ،وبذلك فقدت القبيلة عزها ، وهذا ما يضاعف الحزن ، ويعظم الهم .

وكــان إيراد الحماسيتين متتاليتين أمرًا طبيعيا ،لأنهما لشاعرة واحدة ، في وقعة معينة .. غير أنه لم يفعل ذلك فى حماسيات (عاتكة بنت زيد) .

٤-ثــم تأتى تلك المرثية النادرة ، لأم السليك بن السلكة [١] ــ أو أم تأبط شرا ــ وسوف أعرض لها بعد إن شاء الله .

٥-والخامســة لجارية ماتت أمها [٢] ، فأضرّت بها رابّتها ــ امرأة أبيها ــ وهى فــي ثلاثــة أبيات .. صادرة من نفس مكلومة ، حيث سكت أبوها على ظلمها ، ولم يصــغ إلى شكواها ... إما أن تكون زوج أبيها قد حالت دون وصول الشكوى ، وإما أنه لم يعرها اهتماما ... ومن ثم تذكرت الأمَّ التى تدفع عنها ضرها ، وتحنو عليها . لأنها هى التى حملت ، وأرضعت ، أما الأب فلا.

٦-وأمــا المرثية السادسة فهى لــ (أم الصريح بنت أوس الكندية) [٣] ، ترثى أبناءها ، وقيل : ترثى قومها وقد ماتوا في وقعة (يوم جيشان) ،في ثلاثة أبيات .. وتذكــر مدى شجاعتهم ، وقد كان يمكنهم الفرار لو أرادوا ،ولو فعلوا لكانوا أعزة ، لأن القــوم يخــبُرون شجاعتهم ،ويعلمون شدة بأسهم .. لكنهم رأوا الموت والصبر عليه أكرم وأعز .. وأكاد أشعر أن الأم تود لو فروا .

وهنا يجمل أن نتساءل : لقد جاءت مرثية الجارية التى ماتت أمها ، فأضرت بها رابّتها ، بين حماسيتين : إحدهما لأم الصريح ، والأخرى برقم ٣١٦ وفيها رثاء فتى كان موصوفا بالرياسة ، يزين المواكب خلفه ، وبموته فقدت بنات العم والخال حامياً عزيزًا ، فشملهن الصغار والابتذال .. ما علاقتها إذا بسابقتها ولاحقتها ؟ .

---

[١] المرزوقى برقم ٣١٠ ، والتبريزى برقم ٤٩

[٢] المرزوقى برقم ٣١٧ ، والتبريزى برقم ٥٦

[٣] المرزوقى برقم ٣١٨ ، والتبريزى برقم ٥٧

وفـــي المرثية الأولى لم تجد بنات العم والخال الذائد والمحامى ، لأنه مات فعلا ، وكـــأن أبا تمام يريد أن يقول : إن الأب الذى لا يحمى بناته ، ويدافع عنهن هو في حكم الميت ، ولذا قال القائل:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هـــم الحيـــاة وخلفـــاه ذليلا

إن اليتيم هـــو الذى تلْـــقَى له ... أمـــا تخلت أو أبـــا مشغولا

ومرثية أم الصريح تنبئ عن عاطفة أم مكلومة ، ثكلت أبناءها ، وشعورها بالفقد عظيم ، لأنها هى التى حملت ، وأرضعت ، وسهرت ، وهو ما قالته الجارية في آخر بيت لها :

.... وما الزّنمان إلا بالنتـــــــاج

٧-والحماسية السابعة للنساء لـ(صفية الباهلية) [1] ، وسوف نعرض لها بعد .

٨-والثامـــنة مشـــهورة متداولة ، وهى لـــ(قتيلة بنت النضر بن الحارث)[2] تـــرثى أباهـــا ... وفيها تحمل الراكب رسالة ، تبعث فيها تحية إلى المقبور ... ومع التحية عبرات مسفوحة ، وأخرى هناك مخنوقة وسط همومى وحسراتى . وتقـــول : إن النضـــر سيســـمع تحيتى ، وربما يجيب .. وتزداد حسرتها لأن الســـيوف والرماح التى تناوشته إنما هى سيوف إخوانه ، وذلك بعد أن تقطعت الأســـباب، وانفصـــمت العـــرى ، وهتكت الأستار ، وتشققت الأرحام.. وتتوجه بالخطـــاب إلى الرسول ــ ﷺ ــ مثنيةً عليه ، مادحةً له، ذاكرةً نسبه العريق الشريف من جهتى أعمامه وأخواله ، وتعاتبه : ماذا لو مننت وعفوت وصفحت !! فلقد كانت صلة الرحم والقرابة حرية بأن تعفو عن النضر ... غير أنها تقر أن النضر كان مؤذيا للنبى ، طاعنا في رسالته ، ومن ثم كان حنقه وغضبه :

---

[1] المزروقى برقم ٣٢٦ ، والتبريزى برقم ٦٥

[2] المرزوقى برقم ٣٣٢ ، والتبريزى برقم ٧١.

..................وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

وقــد روى أن النبى ـ ﷺ ـ لما سمع هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه .

٩-والتاســعة لامرأة من كندة (قيل هى لكبشة بنت جفنة) [١] ، من بيتين تلتمس فــيهما عذراً للقتيل ، حيث تركه قومه ، وفروا ، فكأنهم أسلموه لأعدائه ، ولو أنهم حموا ظهره ، وقاتلوا معه لامتنع ..

وتــنعى ذلك القتيل ، وتذكر أنه فتى ، لم تطلع شمس يوم عليه إلا ضر أو نفع ، فسجلّ حياته حافل بالأعمال العظيمة ، وهى لقبيلته ... وهى تلخص في البيت الثانى المثل الأعلى للرجولة ....

١٠-ولمــا كــان المــرثى السابق (فتى) ، استدعى ذكر (فتى آخر) في المرثية العاشــرة ، على لسان امرأة من بنى أسد [٢]، تخاطب خلالها خليلين ـ وهو خطاب معهــود مــن الرجال ، غريب من النساء ـ ، تطلب منهما أن يزورا قبل (أهبان) ، وتدعــو له بالســقيا ، فهــو مستحق ذلك ، إذ هو (الفتى كل الفتى) .. لم يك نكسا ضــعيفا ، أوتافهــا خفيفا ، كان حسن العشرة ، فصيحا ، ليس عييا ، يحبه جلساؤه ويأنسون له ، ولا يملون حديثه .

١١-وهذه امرأة ـ قيل:جاهلية ، وقيل : أموية ترثى أباها في بيتين،[٣] وتخاطب عينــيها أن تكفــا عــن الدموع ، فالبكاء غير مجد ، ولن يرد ما فات ، أو أن هذه الدمــوع لا يمكــن أن تكافئ الفقيد ، إنه أبوها الذى تراه أصلا لكل المفاخر ، فمنه تنبثق ، وعنه تتفرع ، وأن بناته حين يبكينه فالقوم يعلمون صدقهن في كل ما يقلنه إبان ندبهن ...بل إن بناته قاصرات عاجزات عن وصولهن إلى ما يستحق .

١٢-أما (زينب بنت الطثرية) ـ الأموية ـ فترثى أخاها في تسعة أبيات [٤]، وتعجب إذ ترى شجر الأثل مقيما ، بينما أخوها قد هوى ... لكأنها تريد أن ينهدّ كل

---

(١) المرزوقى برقم ٣٣٨ ، التبريزى برقم ٧٧

(٢) المرزوقى برقم ٣٣٩ ، والتبريزى برقم ٧٨

(٣) المرزوقى برقم ٣٦١ ، والتبريزى برقم ٩١ .

(٤) المرزوقى برقم ٣٦٧ ، والتبريزى برقم ١٠٥.

بناء ، ويهوى كل مقيم ، فتنهدم الجبال ، وتقتلع الأشجار ، وتتوقف المياه أو تتجمد ...لكـــن شيئا من ذلك لم يحدث ، أخوها فقط هو الذى تخطفته المنية ، وكل ما على الأرض قارٌّ في مكانه ، ثابت لم يتزلزل .

ثـــم تذكر من صفاته : المضاء ، وخموصة البطن ، وكرم الضيافة ، وكان طويل القامـــة يروى سيفه من دماء أعدائه ، وهو مستشار القوم فيما يشكل عليهم أمره ، راع لحقوق جاراته من الأرامل واليتامى ، لا يشغله أمر عن أمر .

١٣-وهذه أيضا مرثية لأخ ، صاحبتها (مية بنت ضرار الضبية)[١] ــ جاهلية ــ فـــي بيتين فقط ، ترثى (قبيصة) ، تقول له (لا تبعدن)، وإن كان كل شئ مصيره إلى الذهاب .. وتصفه بأنه زين المجالس، أخمص البطن ، مع جود وكرم فياض على الأضياف والمحتاجين .

١٤-المرثـــية الـــرابعة عشـــرة لأم قيس الضبية [٢] ــ وسماها لويس شيخو أم قبـــيس، وهى ترثى أخاها في أربعة أبيات ، وقال بشيريموت : ترثى ولدها ابن سعد .... والراثية تركز على معنى جديد في وصفها فقيدها ، فتقول : إنه كان يفصل بين الخصـــوم حيـــن يحتدم الجدل بينهم ، ويشتد اللجاج ، هنا يبرز (ابن سعد) بحكمته وحزمه وقوله الفصل ، فيرد الجامح ، ويلين الكابح ، ويئد الفتنة في مهدها .. فهو رجـــل مســـموع الرأى ، علَم بين القوم ، ذو رأى صائب ، وحجة قوية ، ولا يشوب كلامه التباس ، ولذا ينصاع له كل الناس .

١٥-والخامسة عشرة كذلك فيها معنى جديد، إنها لامرأة ترثى أباها[٣] المسمى (علـــيا) وهى في بيتين ،تقول : كلما نودى هذا المسمى (عليا) وجدتنى أراع كما تراع الناقة العجول ،التى فقدت ابنها ، ثم تقول : وكم من أناس مسمين بهذا الاسم ، فهـــم مشـــاركون أبى فيه ، لكن ذلك لا يعنى أنهم يكافئونه ، إذ المعوّل عليه العمل والخلق ،وليس الاسم .

---

[١] المرزوقى برقم ٣٧٠ ، التبريزى برقم ١٠٨.

[٢] المرزوقى برقم ٣٧٣ ، التبريزى برقم ١١١ ، رياض الأدب ١١٣ ، شاعرات العرب ٨٧.

[٣] المرزوقى برقم ٣٨١ ، التبريزى برقم ١١٩.

١٦-أمــا (عمرة الخثعمية) فترثى ابنيها في تسعة أبيات [١] ، وترد على لائميها الذيــن رأوا من شدة حزنها ، وعظم جزعها ما جعلهم يلومونها ... فاستنكرت ذلك مــنهم ، لأن حــزنها لايكافــئ المفقودَيْن ، إن هو إلا على قدر (وابأباهما) ..فماذا عساهم يقولون إن أظهرتُ ما في قلبى ؟ !

وفيه سخرية منهم ،وتسفيه لموقفهم ، إذ لم يقدروا المفقودين حق قدرهما ومن ثــم انتقلت إلى تأبينهما ... لقد كانا هاديَيْن للقوم ، بينما هما في المواقف الصعبة لا يحتاجان إلى غيرهما ، بل يذم لهما سيفهما ...

وتتوالى حماسيات النساء في هذا الباب بعد ذلك ، إذ تأتى ثمانى مرثيات متتابعة:

١٧-فــ (ميسون الباهلية) [٢]ترثى أخاها (المقصص) الذى قتل على يدى (هلال أخــى بــنى سمال بن عوف) ، وهى في ستة أبيات ، تؤبنه فيها ، وتتوعد القتلة قائلة لهم : إن لم نثأر للمقصص فهو لكم ، وأنتم أولياؤه ، فاهنأوا بما أرقتم من دمه .. ســوف نغــير عليكم بطلّاب دم ، راكبين خيلا عتيقة كريمة .. وتذكر من صفات أخيها : رعايته اليتامى ، وهو هاش باش مع ضيوفه حتى يستأنسوا فيستوفوا .....

١٨-و(عمــرة بنت مرداس) ترثى أخاها العباس بن مرداس [٣] في ثلاثة أبيات فتخاطــب عينيها ــ وكم خاطبت أمها عينيها ــ فتقول : لقد طال عهدى بكما وفيتين ومــا أكثر ماذرفتما الدموع ، فلكما العذر إذ لم يبق لديكما دموع تبكيان بها ... فلقد نفدت مع كثرة المصائب .

وتذكــر شــدة مصابها ، وضعف قواها ، وانهيارها ، وكانت لا تتوقع أن يصيبها ذلك كله ... لكن أخاها هدّ جسدها حين فقد .

والبون شاسع بين الخنساء وعمرة ، ولا مجال أساسا للمفاضلة بينهما .

---

[١] المرزوقى برقم ٣٨٦ ، والتبريزى برقم ١٢٤.

[٢] المرزوقى برقم ٣٩٠ ، والتبريزى برقم ١٢٨ .

[٣] المرزوقى برقم ٣٩١ ، والتبريزى برقم ١٢٩ .

١٩-وتأتى المرثية التاسعة عشرة لـ (ريطة بنت عاصم) [١] في أربعة أبيات، تبكى فيها قتلى قومها ، كانوا كسيوف الهند ، حماة لحريمهم ، فمصيبة القوم فيهم عظيمة ، ولو أن جبال سلمى نزل بها ما نزل بالقوم لانهدّت ، لكن قومها يتصبرون.

٢٠-ثم تلقانا مرثية (عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل) [٢] وهى المتمة العشرين للشواعر في الباب ، في ثلاثة أبيات ، ترثى فيها (عبد الله بن أبى بكر) ـ ﷺ ـ وكان قد أصيب بسهم في حصار الطائف وهو مع الرسول ـ ﷺ ـ رماه به (أبو محجن) فمات به بالمدينة ، في خلافة أبيه .

وتقسم عاتكة في أبياتها أن تظل باكية حزينة على زوجها ، فهو مستحق لذلك ، إذ كان نسيج وحده في الكر ، ولا نظير له في الذود وحماية الحرم ، لقد كانت الرماح تتكاثر عليه في الميدان لطعنه ، فيتلقاها ، ولا يحيد عنها ....

وتأتى بعد مرثيتين أخريين مرثية (عاتكة) في (عمر بن الخطاب) ـ رضى الله عنه ـ وكان أجدر به لو جعلها تالية لهذه المرثية، ولسنا ندرى سرًّا في الفصل بينهما ، فالمرثيتان في صدر الإسلام ، والراثية فيهما عاتكة ، والمرثيان صحابيان جليلان ، فهناك وشائج ومشابه بينهما ، فلم عدل عن التتابع ؟! .

على أننى لا أجد في المرثيتين الفاصلتين سببا جعل أبا تمام يوردهما بهذا الترتيب:

٢١-فمرثية المرأة الطائية [٣] ـ من خمسة أبيات ـ تتلهف على مافات العشيرة بفقد مرثيها من " حسن الدفاع ، والثبات في وجه الشجاع، الذى لا يدرى كيف يدفع، وأنى يؤتى ويقذع ، وقد طرد الشجعان وطرقهم ذعرا ، شدة مطاعنته ، وقوة مضاربته ...." [٤] .

---

[١] المرزوقى برقم ٣٩٢ ، التبريزى برقم ١٣٠

[٢] المرزوقى برقم ٣٩٣ ، والتبريزى برقم ١٣١

[٣] المرزوقى برقم ٣٩٤ ، والتبريزى برقم ١٣٢

[٤] المرزوقى ص١١٠٥

٢٢-(والعوراء بنت سبيع الذبيانية) تبكي رجلا اسمه (عبد الله) في ثلاثة أبيات، تقول (١) : إنها حين ذكرته ، واستعرضت شريط حياته ، عاودها البكاء والنحيب .. لقـد كان قليل الزاد ، أى خميص البطن ، وكان حازما ، إذا عزم على شئ أمضاه ، وإذا نابته النوائب شمرإزاره ، وهو حين يريد اكتساب المجد يهين ماله للفقراء .

٢٣-ثم تأتى المرثية الثانية لـ (عاتكة) في رثاء (عمر بن الخطاب) [٢] ـ ﷺ ـ فـي ثلاثـة أبـيات ـ تشكو فيها شدة مصيبتها ، وعظم جزعها ، وطول أرقها وسـهادها .. وتدعـو لذلك الجسد الملفف في الأكفان برحمة الله ... وتذكر فجيعة الغارمين فيه ، حيث كان يقيل عثراتهم ، ويفرج كرباتهم .

٢٤-وآخر مراثى النساء لامرأة من بنى الحارث [٣] ـ في ثلاثة أبيات ـ في فقيد لهـا لـم نعرف صلتها به ، فتتحسر على فراقه ، لقد تُركت جثته نهبا للجوارح من الطـير والوحـوش مـن السـباع ... وكان قادرا على الفرار بفرس نشيط ، ضامر الجنبيـن .. لكـن شـيمته الـبأس .. وحتى لو فر فلابد من الموت ، لأن أجله قد انتهى...

ويبدو لى أن هذه المرثية كان الأجدر بها أن تلى مرثية (أم السليك) ، ففيها هذا المعنى ، إذ قالت :

كل شئ قاتل   حين تلقى أجلك

أو مرثية (أم الصريح بنت أوس) إذ قالت :

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم   ولم يرتقوا من خشية الموت سلما

*   *   *

---

(١) المرزوقى برقم ٣٩٥ ، التبريزى ١٣٣.

(٢) المرزوقى برقم ٣٩٦ ، والتبريزى برقم ١٣٤.

(٣) المرزوقى برقم ٣٩٧ ، التبريزى برقم ١٣٥.

ثالثا : باب الأدب :

وهـذه التسمية من افتنان أبى تمام واختراعه ، والأدب هنا ليس بمعناه المعروف مـن شـعر ونـثر ومـا إليهما ، وإنما المقصود الأخلاق والشيم والصفات الرفيعة والمثل...

وفي هذا الباب خمس وخمسون حماسية ، للشواعر فيه حماسية واحدة ، هى من نصـيب (حُرْقة بنت النعمان) ، في بيتين ،[1] وكانت قد أتت (سعد بن أبى وقاص) في الحيرة ، بعد وقعة القادسية ، تشكو إليه أمرها قائلة :

١- بَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ والأمْرُ أمْرُنَا إذا نَحْنُ فيهم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ

٢- فأُفٍّ لدنْيَا لايَدُوم نعيمُها تَقَلَّبُ تَارَاتٍ بِنَا وتَصَرَّفُ

إنهـا ابـنة (الـنعمان بن المنذر) ذلك الملك المشهور ، الذى خلّد ذكره النابغة الذبيانى باعتذارياته ،وصوّره في صورة نادرة المثال ، وها هى ابنته توازن بين حال قومها أيام ملك أبيها ، وحالهم الآن بعد زوال سلطانهم ، فترى أن الدنيا قد قلبت لهم ظهـر المجـن ، فبيـنما كانوا ملوكا بالأمس ، إذا هم (سوقة) اليوم .. وصدق الله العظيم: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

والحُرْقة متضجرة من الدنيا التى فعلت بهم ذلك ،فتلعن هذه الدنيا، التى أحزنت بعد إسعاد ، وأذلت بعد عز ....

* * *

(1) المرزوقى برقم ٤٤٩ ، التبريزى برقم ٥٠ .

رابعاً : باب النسيب :

وفيه إحدى وأربعون ومائة حماسية ، للشواعر فيه حماسيتان فقط :

١-إحداهما لـ (أمامة) محبوبة (ابن الدمينة) ـ الذى أورد له أبو تمام وحده في هذا الباب عشر حماسيات ...

كان (ابن الدمينة) قد خاطب (أمامة) قائلا: (١)

١-وأنتِ التى كلَّفْتِنِى دَلَجَ السُّرَى وجُونُ القَطَا بالجَلْهَتَيْنِ جُثُومُ

٢-وأنتِ التى قَطَّعْتِ قلبى حَزَازَةً وقَرَّفْتِ قَرْحَ القَلْبِ وهو كليم

٣-وأنتِ التى أَحْفَظْتِ قومى فكلُّهمْ بَعِيدُ الرِّضا دانِى الصُّدُود كظِيم

فأجابته أمامة : (٢)

١-وأنتَ الذى أخلفْتَنى ما وعدتَّنى وأشْمَتَّ بى مَنْ كانَ فيكَ يلُوم

٢-وأبْرَزْتَنى للنَّاس ثم تركْتَنى لهم غَرَضًا أُرْمَى وأنتَ سَليمُ

٣-فَلَوْ أنَّ قَوْلاً يَكْلِمُ الجسمَ قَدْ بَدَا بجسمىَ من قَوْلِ الوشاةِ كُلُومُ

إنها محاورة لطيفة بين ابن الدمينة وأمامة ، كل منهما يتّهم الآخر بالجفاء ، والهجر، وأنه سبب له جرحا داميا لاشفاء منه .

ـ وأما الحماسية الأخرى فهى لـ (وجيهة بنت أوس الضّبية) ، تعالج فيها تعلقها بوطنها ، وترد على لائمتها في ذلك ، وتستنكر موقفها ، وتتساءل مستنكرة : وماذا على إن أحببت أرض قومى ، ووطن أهلى ، ومربع صباى !!

وتقول : لو أن الريح تحمل التحية والسلام لحملتها وبُحت لها بأسرار تنقلها إلى ديار قومى وناجَيْتُها بما أكتم ، وأوصيت الريح حينئذ أن تبلغ سلامى غير منقوص ، وألا تخلطه بالتراب .. ثم هى تستقبل ريحا أخرى من جهة قومها فتسائلها عن أخبارهم .

---

(١) المرزوقى برقم ٥٦٩ ، التبريزى برقم ٣١٧

(٢) المرزوقى برقم ٥٧٠ ، التبريزى برقم ٣١٨ .

والحماسية في خمسة أبيات .

ولنا أن نتساءل : ما علاقة هذه الحماسية بالنسيب ؟ . ذهب أحد الدارسين إلى [١] " أن هذه الحماسية ليست من باب النسيب ، فعاطفة الحب فيها موجهة إلى العشيرة، فهى أليق بالباب الأول من الكتاب " أى الحماسة.

ونحن نرى أن هذه الحماسية تدخل باب النسيب من أبواب متعددة وليس من باب واحد :

ـ فإما أن أبا تمام عدّ التعلق بالوطن حبًا ، والنسيب قائم على الحب .

ـ وإمـا أنـه يشير من طرف خفى إلى أن هذه المرأة تحب رجلاً هناك من أبناء عمومتها ، فالحب لساكن الديار وليس للديار ، كما قال القائل :

وما حب الديار شَغَفْن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

ـ أو أنه ـ كما وسع معانى سائر أبوابه ـ وسع معنى النسيب هنا ، فأدخل فيه شكوى الفراق وألم البعاد سواء أكان من الحبيب ، أم من الوطن الحبيب ..

ثـم إن الشـعراء القدماء ربطوا بين الوقوف على الأطلال ـ وهو حب للوطن ـ وبين النسيب ، ومن النسيب ذكر ديار الحبيب ، وعهود الصبا ... إلخ.

ولـيس باب من الأبواب أليق بهذه الحماسية من باب النسيب ، وهذا ما فعله أبو تمام .

* * *

---

[١] حماسة أبى تمام وشروحها ص ١٤٤ حسين محمد نقشة .

خامسا : باب الهجاء :

والهجـــاء مرتـــبط ارتـــباطاً وثـــيقاً بالحروب ، " فيزدهر بازدهارها ، وكثيرا ما يســـبقها، فشأنه في هذا شأن شعر الحماسة ، وكثيرا ما يختلط بالقصائد الحماسية، وبخاصة الشعر الذى يتناول الهجاء القبلى " [١]

وقــد شاركت النساءُ الرجال في الهجاء ، ولكن على ندرة واستحياء ، " وتخلف قاص عن الرجال ، وذلك لأنه يجافى الأنوثة ، وينافى الحياء ..."[٢]

وفي الحماسة ثمانون هجائية ، نصيب الشواعر منها سبع :

١-الأولى لامرأة من عائذة بن مالك [٣] ، في ثلاثة أبيات ، تحث على قتل (جواس بـــن نعيم الضبى) ،وهى أقرب إلى الحماسة من الهجاء، حيث لا نجد فيها من هجاء سوى وصف (جواس) بأنه (الألدّ ــ الغشوم) .

٢-الثانية لامرأة [٤] قتل زوجها في جوار (الزبرقان بن بدر) فتلكأ في أخذ ثأره، فـــأخذت تهجـــو أولئك الساكتين على الظلم ، وقبيلة القاتل ، وتقول لهؤلاء وأولئك : سوف تكون فضيحتكم عظيمة في (عكاظ) ، إذ تأتى القبائل من كل صوب وحدب في كل عام ، ليشهدوا منافع لهم ، وهناك تذاع الأمجاد والمفاخر ، والمعايب والمقابح .. ستدخلون الموسم وقد لبستم ثياب الذل والخزى والعار ، وعليكم أن تجدّعوا آذانكم ، أو أدخلوا فيها أصابعكم ، وكونوا كالصم حتى لا تسمعوا شتمكم وتعييركم بفضيحتكم ... وأنّى لهم ذلك ؟!.

وتســـتحث (الزبرقان) ليسارع بأخذ الثأر ، وتتساءل : أيكون الثأر عاجلا كالنقد الحاضر ؟ أم يكون ضمارا ــ أى دينا ــ لا يرجى قضاؤه ؟ أكذب ذلك أم صدق ؟ حق أم باطل ؟

---

(١) الشعر الجاهلى ٣٣٩ د / يحيى الجبورى .

(٢) المرأة في الشعر الجاهلى ٦٣٤ ، ٦٤١ د / الحوفى .

(٣) في المرزوقى ٦٤٣ ، والتبريزى ٤٩.

(٤) في المرزوقى ٦٤٥ ، والتبريزى ٥١.

٣-والحماسـية الثالثة لامرأة ، تهجو زوجها [١] (قتادة بن مغرب اليشكرى) في أربعـة أبـيات . تقسم أنها صادقة غير حانثة ، أن رائحة فم زوجها أخبث من ريح جيفة الخنزير النتنة ، وهى بالمقارنة إلى رائحة فمه مسك .. وتتساءل : كيف أصبر على العيش معه وقد أَتْلَفَتْ تلك الرائحةُ الشنيعةُ حاستى الشم والسمع لدىّ ؟!.

إنـه هجاء مقذع ، وصادر من امرأة حانقة على زوجها ، مغيظة منه .. وقد ذكر في ترجمته : أن امرأته هذه اسمها (أرنب الحنفية) ، وكان قد تزوجها فلم تلد له ، ونشزت عليه ، فطلقها . [٢]

٤- أما الرابعة فهى لـ (كنزة) أم شملة بن برد المنقرى [٣] ، في سبعة أبيات، تهجـو فيها (مية) محبوبة (ذى الرمة) ، فتقول : إن ظاهر (مى) يخالف باطنها ، وتحـت ثيابها القبح ، فلو أن ذا الرمة الذى هام بها عشقا ، رآها على حقيقتها لندم أشـد الـندم علـى هيامه به ، ونسيبه فيها ، وحينئذ سينصرف إلى امرأة أخرى ، ولربما أعرض عن سائر النساء بسبب شناعة ميّة وقبحها.

وبعض الدارسين يرى أن أبا تمام أورد هذه الحماسية هنا دون سبب واضح [٤].

ونحـن لا نرى ما رآه ، فهى هجاء بيّن ، فإما أن يضعها في باب الهجاء ــ كما فعـل ــ ، وإما أن يوردها ضمن باب (مذمة النساء) ، بيد أن أبا تمام لم يورد في هذا الباب للنساء قط ، وكأنه أراد أن يقتصر الباب على هجاء الرجل للمرأة ..

٥-والحماسية الخامسة(لأم عمرو بنت وقدان) [٥] ، في ثلاثة أبيات ، وفيها تحث الإخوة على إدراك ثأر أخيهم ، وتقول لهم : إن تقاعستم فاتركوا السلاح ، فهو ليس لكم ، ولا أنتم له ، وكونوا مع الوحش ، وفارقوا الإنس فلستم منهم ، أو أنها أرادت

---

(١) المرزوقى برقم ٦٤٥ ، والتبريزى ٥١.

(٢) الشعر والشعراء ٣٩٦ ، وسمط اللآلى ٩١/١ ، والأغانى ١١٢/١٠ ، ١٠٠/١٤ ، ١٠٣ .

(٣) المرزوقى برقم ٦٦٨ ، التبريزى ٧٤.

(٤) حسين محمد نقشة ١٥١.

(٥) المرزوقى برقم ٦٧١ ، التبريزى ٧٧.

: كونـــوا مع الوحش بعيداً عن الإنس؛لأنكم ستعيّرون في غدوكم ورواحكم بقعودكم عن ثأركم ، فلا تُعدّون رجالا ، فما الرجال إلا للسلاح والحرب .. واتخذوا المكاحل ، وتزيّوا بالثياب المصبوغة بالزعفران .. لقد ألهتْكم بطونكم عن عظائم الأمور ، وكنتم كالأنعام .. فتنحّوا بعيدًا لتلعقوا ما في جوانب النّحى من بقايا اللبن أو الزبد .. وهى صورة غاية في التهكم والزراية بهم .

وكان الأحرى بهذه الحماسية أن تلى حماسية (كبشة أخت عمرو بن معديكرب) ، وسواء بعد ذلك إيرادهما في باب الحماسة أو في الهجاء . فقد اختلط التحميس فيهما بالهجاء ، هناك قالت كبشة :

فإن أنتم لم تثأروا واتّدَيْتم	فمشّوا بآذان النعام المصلَّم
ولا تردوا إلا فضول نسائكم	إذا ارتملت أعقابهن من الدم

وأم عمرو تقول هنا :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكـــم	فذروا السلاح ، ووحّشوا بالأبرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا	نقب النساء ، فبئس رهط المرهق
ألهـــــاكمُ أن تطلبوا بأخيكم	أكل الخزيـــر ولعق أجرد أمحق

٦-وهــذه الحماســية لـــ (عاصــية البولانية) في أربعة أبيات [١] ، أقرب إلى الحماســة كذلــك ـ ، تخاطب عينيها ، طالبة أن تجودا بالدموع السواكب ـ وعليه يمكن أن تدخل في باب المراثى ـ ، وبكاؤها على قتلى قومها الذين قتلتهم (محارب) .. ثم هجت قبيلة (محارب) ، تلك القبيلة الضعيفة ، التى لا شأن لها ولا قيمة ، وهذا مكمــن حزنها ، لأن الثأر إن تحقق فلا فخر ، إذ إن الواتر لا وزن له بين القبائل... وإن غلبونا فشر غالب .

---

[١] المرزوقى برقم ٦٧٢ ، والتبريزى رقم ٧٨.

٧- والهجائـــية الأخيرة للشواعر في هذا الباب من بيتين لامرأة ، تهجو رجلا [١] بخـــيلا ، اســـمه (زيـــاد) ، يلقى سائله بوجه عبوس قمطرير ، وكأنه قد تكاثر عليه الخلق جميعا وتكفل بأرزاقهم.

*　　*　　*

[١] المرزوقي برقم ٦٧٣ ، والتبريزي رقم ٧٩.

سادسا : باب الأضياف والمديح :

وهما بابان في شرح المرزوقى ، باب واحد في شرح التبريزى ، ويبدو أن محقق المـــرزوقى هو الذى فصلهما،مع أن هناك ثلاث نسخ مخطوطة بشرح المرزوقى لم يُفصـــل فـــيها الـــبابان كما أشار المحقق ، ونسخة واحدة فقط فيها ذلك الفصل بين البابين .

" ولـــم يكن التبريزى هو الوحيد بين شراح الحماسة الذى جعل الأضياف والمديح بابًا واحدًا ، فقد سبقه أبو هلال العسكرى،وهناك شروح أخرى نهجت ذلك النهج "[1]

وللمرأة في هذا الباب إحدى عشرة حماسية :

ـ وأولى هذه الحماسيات (لليلى الأخيلية)[2] ، وهى في سبعة أبيات ، وليس لها علاقـــة بالأضياف ، إنما هى مديح ، ولست أدرى لماذا ساقها المرزوقى ضمن باب الأضياف ولم يسلكها مع باب المديح بعد أن فصلهما ؟!

وفـــي هـــذه الحماســـية تخاطب ليلى قائد جيش يفكر في غزو قومها ، فتحذره ، وتقـــول له إن عمرو بن الخليع ـ قائد قومها ـ معطوف عليه ، محروس منك ومن أمثالك ، فحَوْلَه قومه ، وهو منهم بمكان القلب من النفس .

ثـــم أخذت في مدح بنى قومها : فهم قوم همُهم الغزو والحرب ، خيلهم على أهبة الاستعداد وسط البيوت ، وأسنتهم زرق مصقولة لامعة ، إن فوارسنا لايهمهم مطعم أو مشرب أو ملبس ، وهم قوم ذوو حياء ، لكنهم عند الحرب لا يُجارون ولا يُبارون .. فكيف لك بجيش كل واحد من جنده كفيل أن يكون زعيما قائدًا !!.

ـ والحماســـية التالية لليلى أيضا [3] ، وفيها مدح وفخر ، وباب المدح أولى بها عـــند المرزوقى من باب الأضياف ، وربما وجدت الحماسية مكانا فسيحا لها في باب

---

[1] راجع : دواوين الحماسة ص ٢١٠ عبد البديع محمد عراق .

[2] المرزوقى برقم ٧٠٠ ، والتبريزى برقم ١٥٥ .

[3] المرزوقى برقم ٧١١ ، والتبريزى برقم ٣٨.

الحماســـة ، فهى إذ تفخر تصف قومها بشدة البأس ، وأن قومها حين يشنون الغارة فإن نساء القبيلة المغار عليها يصحن صارخات معولات ، خشية وقوعهن في السبى وما يلحق بهن من العار .

وفـــي الأبـــيات تقول (وَتَعْلَمُنَا الرِّفاقُ بُحُورَا) ولعل هذه العبارة هى التى حفزته لضمها إلى حماسيات الباب .

ـ والثالـــثة لليلى كذلك [1] ، وهى من بيتين ، تذكر راحلتها وثيقة الظهر ، ليّنته، وهى قوية ، مسنّة ، والغراب يفرح إن كُشف ظهرُها حتى يتمكن من نقرها ...

وواضح أن هذه وسيلتها للوصول إلى الممدوح ، فمن هو ؟ .. لم يذكره أبو تمام، مكتفيا بالبيتين ، ومعتمدا على فهم القارئ .

وبذلـــك تكـــون الحماســـية فـــي وصف الراحلة ، لكنها الراحلة التى توصل إلى الممدوح ، وهناك يكون الجود والكرم .

ـ والحماســـية الرابعة لحبيبة بنت عبد العزى [2] في خمسة أبيات ، تستنكر تلكؤ ناقتها وتباطأها وهى ذاهبة إلى فتى كريم جواد يسمى (برًا) ... ثم تدعو على ناقتها إن خذلتها في رحلتها أن يعرقبها الله حتى يسيل دم أسود ثخين على مناسمها ...

ثـــم تقسم على ألا تصون طعامها عن الناس وتحبسه ، بل ستدعوهم إليه ، فذلك الكـــرم ميراث الأجداد والآباء ، أوصوا أبناءهم به ، فلن تبقى شيئا من ذلك الطعام ، بل ستصبه صبا للضيفان .

وتسخر من الحريص البخيل قائلة له : إذا استطعت حبس طعامك عن المحتاجين ، فهيا احذر عليه الفئران وصرار الليل ... لست بمستطيع ذلك .

ـ والحماسية الخامسة هى مراسلة شعرية طريفة بين (سالم بن قُحفان العنبرى وامـــرأته) ... وكان (سالم) قد أهدى لأخيها بعيرا ، ثم آخر ، ثم ثالثا ، ومع كل

---

[1] المرزوقى ٧١٦ ، التبريزى ٣٨.

[2] المرزوقى ٧١٦ ، التبريزى ٤٣

بعــير كـــان يطالـــبها بـــإعداد حَبْل ليقرن به ما أعطى إلى البعير .. فأعطته حبلين لبعيريـــن، وفـــي الثالث قالت : ما بقى عندى حبل ، فقال لها : عليّ الجمال وعليك الحبال ، فأعطته خمارها وقالت : اجعله حبلا لبعضها ، فقال أبياته . [١]

يطالـــبها مـــن خلالها أن تكون مشاركة له في الكرم ، ويخبرها بأنه يعلم أن خير مال يُقتنى هو الجمال ، ولكن الجود به أبقى .

فاســـتجابت امـــرأته [٢] ، وشاركته البر، وأقسمت أن تعدّ حبالا كثيرة ، وتهيئها للجمال التى سيقدمها زوجها ، نزولًا على رغبته ، واقتداءً بفعله ، وقناعةً منها بالبر .. وتحولت المرأة إلى حاثة لزوجها على البذل الواسع ، والعطاء الفياض .

ــ أما السادسة فهى من بيت واحد [٣] ، لأخت النضر بن الحارث ، تقول :

الواهب الألف لا يَبْغى بها بدلا   إلا الإله ومعروفا بما اصْطَنَعَا

أى أنـــه يجـــود بمـــا يجود من ماله ، لا يبتغى جزاء ولا شكورا من أحد ، وإنما ابتغاء مرضاة الله ، وقربة إليه سبحانه .

ــ والسابعة لصفية بنت عبد المطلب [٤] في ثلاثة أبيات ، وفيها رسالة إلى قومها مـــن قريش ، تذكرهم بأمجادهم ، وتطالبهم أن يواصلوا على الطريق .. وتفاخر بأن قومهـــا لم يعرفوا الغدر بالجار ، ولم يؤذ مَحْرم لديهم .. فهم جامعو مناقب الخيرات .... ويبدو أنها تحثهم على المسارعة إلى أمر يحتاج إلى تدخل حاسم منهم.

ــ وتـــأتى الحماسية التالية لامرأة من بنى مخزوم [٥] ، في ثلاثة أبيات ، تخاطب فيها امرأة قائلة : إن سألت عن المجد ومقره فهو في بنى تيم ومخزوم.... إنهم قوم يغيثون الملهوف فيسارعون إلى خيل جرد ، كرام ، سراع ، مثل أسنة الرماح .

---

(١) المرزوقى برقم ٧٦٧ ، التبريزى برقم ١١.

(٢) المرزوقى برقم ٧٦٨ ، التبريزى برقم ١٢ .

(٣) المرزوقى ٨٠٥ ، التبريزى ١٣٧

(٤) المرزوقى ٨٠٦ ، التبريزى ١٣٨

(٥) المرزوقى ٨١٣ ، التبريزى ١٤٠.

– وحماسية أخرى في بيت واحد لـــ (أخرى) تقول : [١]

ألا إن عبد الواحد الرجل الذي   ينيلك ما طالبت والوجه وافر

إنه رجل يعطى قبل أن يُسأل ،ولا يضطر سائله لإراقة ماء وجهه.

– ثـــم تأتى حماسية الخنساء [٢] وهى الوحيدة لها في الحماسة ، وكنا نتوقع أن ينتخـــب أبـــو تمـــام لهـــا من رثائها ، ولكنه اختار ثلاثة أبيات من قصيدة في واحد وعشرين بيتاً . . وسوف نعلق عليها بعد .

– أمـــا الأخيرة وهى الحادية عشرة لامرأة من إياد [٣] ، في أربعة أبيات ، وفيها مـــدح لـــرجل اســـمه ابـــن عمرو، معروف بشدة البأس ، والعفة ، والمسارعة إلى المكـــرمات ، والحرص على المجد ، وجزالة الرأى ، وبراعة النفس والعقل ، وجاره آمن لا يخاف مكرا وختلا . .

* * *

---

[١] المرزوقى ٨١٤ ، التبريزى ١٤١.

[٢] المرزوقى ٨١٥ ، التبريزى ١٤٢.

[٣] المرزوقى ٨١٦ ، التبريزى ١٤٣.

سابعا : باب الملح :

وهــذا الباب حماسياته لمجهولات عدا حماسيتين ، إحدهما لأم النحيف ، وللنساء فيه ست حماسيات :

ــ الأولــى لامرأة [١] تدعو فيها على الشيوخ ومن يرضى مناكحتهم ... في ستة أبيات .

ــ ثم حماسية [٢] لقابلة أو امرأة تتحدث عن ولادة امرأة في ثلاثة أبيات .

ــ والثالثة لجارية [٣] ترد على أخرى تسبها ، في ثلاثة أبيات كذلك.

ــ وأخرى [٤] تسب أبا جارية في ثلاث أبيات .

ــ أما الخامسة [٥] فهى لامرأة تدعو على من عادى أباها ، في ثلاثة أبيات .

ــ والسادســة لأم النحيف [٦] ، وكان ابنها (النحيف) قد تزوج امرأة ، نهته أمه عــنها ، فلم ينته ، ثم ما لبث أن أدرك خطأه ، فهم أن يطلقها ، فنهته أمه ، وطالبته أن يصابرها ، ويعاملها معاملة الأحرار الكرام .. وهى في تسعة أبيات .

* * *

---

(١) المرزوقى برقم ٨٣٠ ، التبريزى٢.

(٢) المرزوقى برقم٨٤٤ ، التبريزى ١٦

(٣) المرزوقى برقم ٨٥٩، التبريزى ٣٢.

(٤) المرزوقى برقم ٨٦٠ ، التبريزى ٣٣.

(٥) المرزوقى برقم ٨٦١ ، التبريزى ٣٤ .

(٦) المرزوقى برقم ٨٦٢ ، التبريزى ٣٥.

ملحق الفصل الثالث



في الحماسة:

من الحماسيات الجاهلية : حماسية (كبشة أخت عمرو بن معديكرب)[١]

تقول : [٢]

١- أَرْسَلَ عَبْدُ اللهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ ... إلى قومه : لا تَعْقِلُوا لهُمُ دمي

٢- ولا تأخذوا منهم إِفَالاً وَأَبْكُراً ... وأُتْرَكَ في بَيْتٍ بصَعْدَةَ مُظْلِم

٣- وَدَعْ عَنْكَ عَمْرًا ، إنَّ عَمْرًا مُسَالِمٌ ... وهَلْ بَطْنُ عَمْرٍو غَيْرُ شِبْرٍ لمَطْعَم

٤- فإنْ أنتمُ لَمْ تَثْأَرُوا واتَّدَيْتُمُ ... فَمُشُّوا بآذانِ النَّعَامِ المُصَلَّمِ

٥- ولا تَرِدُوا إلا فُضُولَ نِسَائِكُمْ ... إذا ارْتَمَلَتْ أَعْقَابُهُنَّ مِنَ الدَّمِ

وخبر هذه الأبيات : أن عبد الله بن معد يكرب مرّ براع للمجزم بن سلمة ، من بنى زبيد ، فاستسقاه لبنا فأبى ... وانتهى الأمر بأن قتله عبد الله ، فثارت بنو مازن بعبد الله فقتلوه ...

---

(١) هي كبشة بنت معديكرب ، أخت عمرو بن معديكرب ،وكان لها أخ آخر اسمه عبد الله ، وهو المذكور هنا في الأبيات .

راجع ترجمتها في ترجمة أخيها عمرو في / الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٧٤ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٥/ ٣٣٧ وأمالي القالي ، وحماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ، وشرح التبريزي ، وشرح أبي العلاء ، في المواطن المذكورة بعد ، ويبدو أنها غير (ريحانة) التى ذكرها عمرو في شعر له .

(٢) الأبيات في حماسة المرزوقي برقم ٥٢ جـ١ / ٢١٧ ، وحماسة التبريزي ٢١٧/١ برقم ٥٣ ، وعند أبي العلاء برقم ٥٣ . والبيتان ٤ ، ٣ في الشعر والشعراء . وشاعرات العرب / بشير يموت ٩٧ .

ب١ : إنحان يومه :أي دنا أجله . لا تعقلوا دمي : أي لا تقبلوا ديتي .

ب ٢ : إفال : جمع أَفِيل ، وهو الصغير من الإبل الذيلم يبلغ سبعة أشهر . والأبكر: جمع بكر ، وهو الفتيّ منها .بيت : قبر. صَعْدة : مكان باليمن . مظلم : أي قبره ، سيظل مظلما إذا قبلوا ديته ولم يدركوا ثأره .

ب ٣ : عمرا : تقصد عمرو بن معديكرب أخاها . دع عنك عمرا : أي خالفه إن رضي بالدية . هل بطن عمرو : تزهيد في الدية .

ب ٤ : اتَّديتم : قبلتم الدية . مشّوا : أي امشوا ، أو امسحوا بالمشوش ، وهو منديل يمسح به الدم ، وفيه كناية عن الذل . المصلم : المجدع الآذان ، أو الأصم . .

ب ٥ : ارتملت : تلطخت بالدم .

وجاءوا إلى أخيه عمرو ، فقالوا : إن أخاك قتله رجل منا سفيه ، ونحن يَدُك وعضـــدك ، فنســـألك الرحم إلا أخذت الدية ... وهمّ عمرو بذلك ـــ أو توهمت كبشة أنه هم بذلك ـــ ، فغضبت أخته كبشة ، وقالت هذه الأبيات .

فهل كانت هذه وصاة عبد الله وهو يعالج سكرات الموت ؟ أم أن أخته كبشة قالتها على لسانه ؟!

يبدو أنها الأخرى ..

وفـــي الأبـــيات تجعل أخاها القتيل شاخصا ، ماثلا أمام القوم ، يتكلم ودماؤه تـــنزف .. فيذكرهم وصيته : لا تقبلوا ديتى ، وانهضوا لإدراك ثأرى .. فإن لم تفعلوا وقبلتم ديتى ـــ وهى تافهة حقيرة ـــ فإن ذلك يعنى هوانى عندكم ، حيث استعضـــتم عـــنى بهذا البدل التافه ... كما أنكم ستجعلون قبرى مظلما لا يضئ أبـــدا .... وقـــد كانوا يعتقدون " أن المقتول إذا ثأروا به أضاء قبره ، فإن أهدرَ دمه ، أو قُبِلَتْ ديته بقى قبره مظلما " [١]

وتستثير حمية عمرو أخيها ـــ وهو من هو شجاعة وفتوة وفتكا ـــ الفارس المعدود بين فرسان العرب ، ولم يكن ممن يسالم ، ولا سيما في طلب دم أخيه، فتحاصـــره ، وتسد عليه كل باب يمكن أن يفكر فيه ـــ مجرد تفكير ـــ لإحلال ســـلام عـــن طريق قبول الدية . فتحثه على الإسراع في طلب الثأر لكى يزيل الظـــلام عـــن قبر أخيه ... وتزهده في الدنيا وحطامها، فما الإفال والأبكر في مقابل عبد الله ؟ ! .

وتشدد الحصار على عمرو وقومها جميعا ، وتضغط عليهم ، حين تقول على لســـان القتيل : إن أنتم رضيتم بالدية ولم تدركوا ثأرى ، فقد لبستم ثياب الذل

---

(١) المرزوقى ٢١٧ ، ٢١٨ .

والخـــزى والعـــار ، فامشوا بهذا الذل ، وكونوا كالنعام مجدّع الآذان ... وفيه إشـــارة إلـــى جبن النعام وغبائه ،وذلك أنه حين يحس الخطر يدفن رأسه في الرمال ، ظانًا أنه استخفى بذلك عن أعدائه.

وخـــص الآذان : لأنهـــا حاسة السمع التى تُسمع بها الاستغاثة والوصية... فكأنهم حين عطلوها عن وظيفتها كانت كالمقطوعة ، أوالمعدومة.

كمـــا أنهم سيعيّرون ــ بنكوصهم ، وعدم نهوضهم لأخذ ثأرهم ــ من سائر الناس ، ويُرْمَوْن بالذل والهوان ..

وتحـــتدّ في الهجوم ، وتشتد في حصارها لهم ، حين تجعلهم ــ إن تقاعسوا ورضـــوا بالديـــة ــ قـــد خلعـــوا على أنفسهم ثياب النساء ، وتَعرَّوْا عن ثياب الـــرجال، فلـــم يعد لهم مكان بينهم ، إذ " كان من عادتهم إذا وردوا المياه أن يـــتقدم الرجال ، ثم العضاريط والرعاء ، ثم النساء إذا صدرت كل فرقة عنه ، فكن يغسلن أنفسهن وثيابهن ، ويتطهرن آمنات مما يزعجهن ، فمن تأخر عن المـــاء حـــتى تصـــدر النساء فهو الغاية في الذل ..وجعل النساء مرتملات بدم الحـــيض تفظـــيعاً للشأن،وتدنيسا للماء" [١] ففيه: أن هؤلاء النساء لن يُعِرْنَهن اهـــتماما ، فهـــم مثلهـــن ، أولا وجـــود لهم ، فلن ينزعجن إذاً من وجودهم ، وسيمارسن عاداتهن كما كن يفعلن من قبل .

وقـــيل : " إن المعـــنى إذا قبلـــتم الدية فلا تأنفوا بعدها من شئ ، كما تأنف العرب ، واغشوا نساءكم وهنّ حيض .. والفضول هنا : بقايا الحيض " [٢]

وقـــال أبـــو محمـــد الأعـــرابى : معناه لا تردوا المواسم بعد أخذ الدية إلا وأعراضكم دَنِسَةٌ من العار ، كأنكم نساء حُيّض . " [٣]

---

[١] المرزوقى والتبريزى .

[٢] التبريزى .

[٣] نفسه

ويـــبدو لى معنى آخر وهو : إنكم ضيعتم دم أخيكم ،ولم تريقوا دم أعدائكم ، فارضـــوا بدم نسائكم ، فقد ضيعتم الدم الطاهر النقى ، ولم تعبأوا إذ لم تريقوا مثله بواءً به ، فلتقنعوا بدم فاسد ، نجس ، مقزز .

وهـــذه المعـــانى لم تنفرد بها كبشة ، بل تتردد على ألسنة الجاهليين ، ولا ســـيما الشـــواعر ، فهذه امرأة جاهلية من جديس ، تحرض قومها على الثأر قائلة : (١)

١- فَلَلْبَيْنُ خَيْرٌ من تماد علـى أذًى	ولَلْمَوْتُ خَيْرٌ من مقام علـــى الذُّل
٢- وإن أنْتُمُ لَمْ تَغْضَبُوا بَعْدَ هـذه	فكونوا نساءً لا تُعَابُ مـن الكُحْل
٣- ودونكمُ طيبُ العَرُوسِ فإنّمـا	خُلقْتُم لأثْوَابِ العروس ولِلّبـــْـس
٤- فبعداً وسحقاً للذى ليس وافعاً	ويختال يمشى بيننا مشية الفحل

بـــل إن النساء الجاهليات كنّ يبكّتن الفارّين والناكصين ، " وإذا رجع إليهن رجل فارٌ أعطينه مكحلة ومجمرة ، وقلن : معنا فانزل ، أى أنك من النساء" (٢)

وهذه عميدة الراثيات ــ الخنساء ــ تحرض قومها قائلة : (٣)

شدوا المآزر حتى يستقاد لكـم	وشمروا إنها أيـــام تشمـــار
لا نوم حتى تقودوا الخيل عابسة	ينبذن طرحا بمهرات وأمهـــار
أو تغسلوا عنكم عاراً تجللكـــم	غسل العوارك حيضا بعد أطهار

فهى تستنفرهم وتستفزهم وتدق آذانهم دقا .

* * *

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ٣٩٧ محمد أحمد جاد المولى ، على البجاوى ، محمد أبو الفضل ، ط ثالثة ــ القاهرة .

(٢) المرأة في الشعر الجاهلى ٤٥٥ .

(٣) ديوانها ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ بأرقام (١٣ ، ٢٢ ، ٢٤).

في الرثاء

أمٌّ ثكلى

إنها السُلَكَة ، أم السليك [١] ، أو أم تأبط شرا ، قالت ترثيه : [٢]

طَافَ يَبْغِي نَجْوَةً ... مِنْ هَلَاكٍ فَهَلَكْ
لَيْتَ شعْرِي ضَلَّةً ... أَيُّ شَيْءٍ قَتَلَكْ
أَمَرِيضٌ لَمْ تُعَدْ ... أَمْ عَدُوٌّ خَتَلَكْ
أم تَوَلَّى بِكَ مَا ... غَالَ في الدهر السُّلَك
والمنَايَا رَصَدٌ ... للفَتَى حَيْثُ سَلَكْ
أَيُّ شيءٍ حَسَنٍ ... لفتىً لم يَكُ لَكْ ؟!
كل شَيْءٍ قاتِلٌ ... حين تَلْقَى أَجَلَكْ
طال ما قَدْ نِلْتَ في ... غير كدٍّ أمَلَكْ
إنَّ أمراً فادحاً ... عن جوابي شَغَلَك
سأعزِّي النَّفْسَ إذْ ... لم تُجِبْ من سألك
ليت قلبي ساعةً ... صَبْرَه عنك مَلَكْ

---

(١) السليك بن سلكة السعدى ، منسوب إلى أمه سلكة ، وكانت سوداء .. وكان له بأس ونجدة ، وكان أولى الناس بالأرض ، وأجودهم عدْوًا على رجليه . الشعر والشعراء برقم ٤٩ /٣٦٥ تحقيق أحمد محمد شاكر- دار المعارف ١٩٦٩ م، شاعرات العرب / بشبريموت ٦٣ .

(٢) شرح المرزوقى برقم ٣١٠ ـ ٣/٩١٤ وهى في تسعة أبيات فقط ، بدون الأبيات (٤ ، ١١ ، ١٢) وشرح التبريزى ٢ / ٣٦٩ برقم ٤٩ والنص منه ، وبشرح أبى العلاء رقم ٣٠٨ ـ ١/٥٥٢ في اثنى عشر بيتا ، وبترتيب مختلف.

ب ١ : نجوة : مكان مرتفع لا يصل اليه السيل ولا يبلغه .

ب ٢ : ضلة : ضلال .

ب٣ : ختلك : خدعك .

ب ٥ : ويروى (رُصَدٌ) كأنه جمع راصد ، وتكون المنايا جمعا .

(الشعر والشعراء٣٦٨) ، والتبريزى ٣٧٢ ، قال : والدليل على أن هذه الأبيات لأم السليك ما يدل عليه الخبر .وذلك . . ثم ساق الخبر مفصّلاً .

ليت نفسي قُدِّمتْ للمنايا بَدَلَـــكْ

كـــان السليك قد مرّ في بعض غزواته ببيت من خثعم ، أهله خلوف ، فرأى مـــنهم امرأة بضّة شابة ، فتسنمها ومضى ، فأخبرت القوم ... فركب أنس بن مدركة الخثعمى في إثره ، فقتله ، وطولب بديته ، فقال والله لا أديه ابن إفال ، ثم قال:

إني وقتلي سُلَيْكاً ثم أعقله كالثور يُضْرَبُ لما عافَتِ البقر

تقــول : ذهب ابنى السليك يبحث عن ملجأ يقيه ، وملاذ يعتصم به، وموئل يـــأوى إليه ، فرارًا من الموت ، فإذا به يهلك . ولا عجب فـــ (من مأمنه يؤتى الحذر)!.

إن السليك وأضرابه يترقبون الموت في كل آن،فقد قال زميله تأبط شرًا : [1]

وإني -ولا علم- لأعلم أننـــي سألقى سنان الموت يرشق أضلعـــا

على غرة أوجهرة من مكاثر أطال نزال الموت حتـــى تسعسعا

ومن يضرب الأبطال لابد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

ومـــن ثـــم ذهب السليك " خوفا من الموت ، فأخذ يتنقل في البلاد والبقاع ، ويتطلب موضعاً يبعّده من الآفات ، فبقى يتردد في ذلك ويتحير، فإذا الهلاك قد فاجأه من حيث لا يحتسب ولا يرتقب " . [2]

وتتساءل الأم في قلق ولهفة : كيف كانت نهايته ؟ :

ــ أكـــان مريضا ، ولم يجد من يمرّضه ويعوده ؟ إن الأم خير من يقوم بهذا الدور ، فهى تسهر على راحة ابنها ، وتضحى من أجله ، فمن له إذاً بعدها في غربته ليقوم بذلك؟ ! .

---

[1] الأغانى (دار) ٢٤٥/٢١ ، شعر تأبط شرا ١٠٠ ، الروائع من الأدب العربى حـ١ / ٤٤٩ .

[2] المرزوقى ٩١٥ .

ـ أم أن عــدوًا ـ ومــا أكــثر أعداءه ـ خدعه ؟ ...وهذه إشارة منها إلى شــجاعة ابــنها ، وشــدة بأسه ، إذ إن قتله لا يكون مواجهة ، فهو المنتصر حينئذ، فلابد أن عدوه استخفى له وكمن ، فانقض عليه ، واغتاله ختلا وغدراً.

ـ أم أن الدهر هو الذى غاله ؟ ! .

وتسلّم الأم بعد ذلك ، إذ النهاية واحدة :

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

وحتى لو كان محصنًا بالحصون ، أو معتصمًا بقمم الجبال فلن يفلت.. المهم أنــه قد هلك ، وما هو بفتى عادى كسائر الفتيان ، وإنما كان أمّة من الفتيان، لأنــه استجمع كل المَيْزات التى وزعت على سائر الفتيان ، فليست هناك صفة طيبة أو خلة حميدة ، أو خصلة كريمة في فتى من الفتيان إلا وحازها ابنى ...

وتشير إلى أن ابنها حقق كثيرا مما كان يؤمل ، أى أنه رجل إذا أراد فعل ، وإذا رجا عزم ومضى ..

وإلــى أنــه كان بارًا بها ، يستجيب لندائها ، ويذعن لأوامرها ،ولكنه هذه المــرة لم يجب ، وما شغله عن إجابتها إلا أمر فادح ، وخطر بالغ .. فإبطاؤه عن تلبية ندائها نذير أمر خطير .

وتعزى نفسها ، وتحاول أن تتصبر وهذا التعزى ليس لتسل عن المفقود،ولا لتناس منه ،ولكنه طيب النفس بتشارك الناس فى إمساكه عن إجابتهم " . [1] لكــنها تفشل فى تصبير نفسها ، وتيأس من أن تستجيب النفس،فتود لو كانت الفداء لابنها .

وفــى هذه المرثية تتبدى طبيعة الأم ومشاعرها واضحة ، إذ إن الغالب فى الــرجال عدم رضاهم عن السلوكيات الخاطئة لأبنائهم ، فالعقل يغلب العاطفة ..

---

(١) نفسه ٩١٧ .

أمـــا الأم _ فلحـــنوها وشـــفقتها وضعفها _ فترى ابنها وإن كان جبانا أشجع الناس ، ولو كان قبيحا تراه أجمل الناس ، وإن كان بخيلا فهو فى عينها أجود الناس .. ولذا قالوا : (القرد في عين أمه غزال) .

* * *

قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية [١] ـــ ترثى أخاها ، أو زوجها ـــ (من الكامل)[٢]

١- يا عَيْنِ بكّى لى عند كل صباح	جُودى بأربعة علـــى (الجرّاح)
٢- قد كنتَ لى جَبَلاً ألوذُ بظلــه	فتركتَنى أضحى بأجْرَدَ ضـــاح
٣- قد كنتُ ذاتَ حميّة ما عشتَ لى	أمشى البَرَازَ ، وكنتَ أنت جناحى
٤- فاليوم أخضعُ للذليل ، وأتّقــى	منه ، وأدفع ظالمى بـــالرّاح
٥- وأغضّ من بصرى ، وأعلمُ أنــه	قد بانَ حَدُّ فوارسى ورمَاحــى

---

(١) فـــي التبريزى (الأجحم) ، وفي المرزوقى (الأحجم) ... وهى : فاطمة بنت الأحجم ، أحد سادات العرب ، وهو ابن دندنة الخزاعى ، وزوجته هى خالدة بنت هاشم بن عبد مناف . وقال السكرى : الشعر لليلى بنت يزيد بن الصعق ، ترثى ابنها قيس بن زياد بن أبى سفيان بن عوف بن كعب . وقال الأخفش : إنه لامرأة من كندة ترثى زوجها (الجراح) انظر : هامش المرزوقى ٩٠٩ ، نقلا عن الأمالى للقالى والتنبيه ، وانظر شرح أبى العلاء (الهامش) .
واخــتلفوا : هــل فاطمـــة هــذه جاهلــية أم إسلامية ؟ . فذهب لويس شيخو إلى أنها جاهلية ، وذكر بشير يموت أنها إســلامية، والراجح أنها جاهلية ، لأن الجراح هذا قتل في يوم (الحُرَيْرة) وهو أحد أيام الفجار الثانى ، وفيه انتصرت قيس عيلان على كنانة وقريش،راجع : أيام العرب في الجاهلية ٣٣٧.

(٢) فـــي المـــرزوقى بـــرقم ٣٠٨ ، والتـــبريزى برقم ٤٧ ، وأبى العلاء برقم ٣٠٥ وقد انفرد بالبيتين الأخيرين ، والأبــيات أيضا في أيام العرب في الجاهلية ٣٣٩، ورياض الأدب ٦٦ ، ٦٧ (في أحد عشر بيتا) ، وكذا في شاعرات العرب/بشيريموت ١٦٤ .

ب ١ : بكّـــى : أكـــثرى الـــبكاء ، أو كرّريه وزيدى منه . جودى بأربعة : تقصد قبائل الرأس ، والدمع يخرج من الشئون ، فأراد : جودى بدمعك كله ، ولا تدخرى منه شيئا . ويجوز أن يكون المراد بالأربعة : الموقين واللحاظيْن .

ب ٢ : الأجرد : الأملس . الضاحى : البارز للشمس .

ب ٣ : ذات حمـــية : لـــى مـــن يحمينى . البراز : الفضاء من الأرض لاستر فيها ولا ظل . الجناح من الإنسان : اليدان وما يتقوى به الإنسان . ب ٤ أخضع للذليل : أى لا ناصر لى .

ب ٥ : هذا البيت في رواية المرزوقى بعد البيت السادس ، ورواية التبريزى هى الأوفق ، أغض من بصرى : أى ذلة وانخذالا .

٦- وإذا دَعَتْ قُمْرِيَّةٌ شَجَنًا لهــــا ... يوما على فَنَنٍ دَعَوْتُ صَبَاحِى

٧- وخطيبِ قَوْمٍ قَدَّمُوه أمامهــم ... ثقةً بـــــه ، مُتَخَمِّطٍ ، نَبَّاحِ

٨- جَاوَبْتَ خُطْبَتَه فَظَلَّ كأنــــه ... .لما نَطَقْتَ .مُلَّـــــمُ بِمِلَاحِ[1]

هــذه الشاعرة ترثى فقيدها ـ الذى يبدو أنه زوجها ـ ، فتخاطب عينها ، طالبة إليها أن تبكى دموعا غزارًا ، عند كل صباح .. فلماذا خصت الصباح ؟ .

ـ ربمــا لأن الصــباح هــو وقت الإغارة على الأعداء فيحقق لهم مجدًا ونصرًا ومغنما ،" فهو وقت نكايته في الأعداء ، وشن الغارات على المنابذين ، فاجعلى بإزاء فعله حينئذ البكاء عليه الساعة . "[2]

ـ أو أنه وقت إغارة الأعداء على قبيلتها ، فهى تتوقع غارة من أى قبيلة مع صباح أى يوم ، وقد كان (الجراح) هو الذى ينود عنهم ، ويدفع عن حماهم ، فكأنه صار بعد مقتله ـ مستباحاً ، ومطمعا لشتى القبائل ، ولذا قالت في البيت التالى (قد كنت لى جبلا) . .

ـ أو أنها أرادت بداية اليوم ، يوم جديد من الحزن والبكاء ، وستظل باكية طوال اليوم ، ولن يتوقف البكاء إلا مع إخلادها للنوم .. ثم تستيقظ صباحا لتبكى .. وهكذا. وتخاطب فقيدها الذى كان ملجأها وملاذها ، تعتزبه ، وتحتمى بسلطانه ، وتأوى إلى

---

[1] ب ٦ : دعــتْ : ناحت . قمرية : حمامة . فنن : غصن . دعوت صباحى : أى قلت : واصباحاه ، أو قلت : واسوء صباحى . قال البكرى في التنبيه على الأمالى ص ٨٨ : وأخبرنى غير واحد عن أبى العلاء المعرى ـ رحمه الله ـ أنه كان يرد هذه الرواية ، ويقول : إنها تصحيف ، وكان ينشده :

وإذا دَعَتْ قُمريَّةٌ شَجِباً لها

يعــنى فرخها الهالك ، وهو الهديل . والشجب : الهلاك والهالك . وأخلق بهذا القول أن يكون صحيحا ، والحق أحق أن يتبع .. (هامش المرزوقى ٩١١) .

ب ٧ : متخمط : متكبّر . ويروى (تَيّاح) وهو الذى يتعرض لما لا يعنيه .

ب ٨ : إذا فسد حياء الناقة علوج بملح ، فيأخذها من ذلك وجع ، شبه هذا بها لما لقيه من المشقة ، والملاح ـ أيضا ـ جمع ملح

[2] المرزوقى ٩٠٩.

كـنفه ، وتتـيه بـه فـي الناس .. وبفقده فقدت عزها ، لأن (عزيز القوم من عزّ ناصـره) ، تقـول : لقـد كنت لى جبلا ألوذ بظله ، والظل ليس مقصورًا على الظل المعـروف ، وإنما أرادت المنافع الجمة ، والفوائد العظيمة ، التى تتأتى من الجبل : فهو رمزالثبات والرسوخ ، والعزة والشموخ ، يُستظلُّ بظله من وهج الحر ، ويُكتَنُّ به من شدة القر ، ويُعْتَصَم به عند الخوف ، وعلى قمته توقد نار الهداية ... إلخ .

لقد كان أخوها بالنسبة إليها كلّ هذه المعانى ، ومن ثم راحت تعدّد ما فقدته : لقد صارت عرضة للأخطار ، فهى مكشوفة ، في أرض فضاء ، وتلك مظنة الخطر على المـرأة . وكانت تمشى بارزة بين الناس لا تخشى بأسا ، أو تخاف خطرًا ، إذ كيف تخـاف ولها جناحان ؟ قال المرزوقى : " أى كنتُ أطير بقوتك ، وأنهض في الأمور بصولتك ، وأبطش بالأعداء بيدك وأيْدك " [١]

وللجناح دلالته الرمزية ، فسلاح الطائر جناحه ، ينهض به حين يستشعر خطرًا ، وحين يهيض الجناح منه يصبح مطمعا لكل طالب .. وقد أرادت المرأة هذا المعنى . إنها الآن قد فقدت جبلها ، وكسر جناحها ، فخضعت للذليل .

وخضوعها للذليل ـــ مع ذلته ـــ يعنى أنها لاحول لها ولا قوة ، فهى من الضعف الشديد وفقدان المحامى حتى ليطمع فيها كل ضعيف ذليل . تقول : " صرت من طلب السلامة على الدهر وأهله ، بحيث يطمع في الذليل ، ويستلين جانبى المهين ، فأتقى ذا الشوكة ومن لا شوكة له ، وأحذر من يُخشى كيدُه ومن لا كيْد له " [٢] ..

إنها تؤثر السلامة ، فلم تعد تظهر أمام الناس حتى لا يُطمع فيها ، وقولها : (أدفع ظالمى بالراح) " أى أدفعه بألين ما أجد السبيل إليه ، لا خشونة لى في قولى ، ولا مـزاحمة فـي ركنى ، ولا اعتراض شديداً منى في اهتضامه لى ، ولا محاجّة قويةً

---

[١] نفسه ٩١١.

[٢] نفسه .

علـــى جداله إياى ، فعْل من لا حدّ له ولا حديدة ،ولا عُدد ولا عتيدة ، ولا حمى ولا حميّة " .. [١]

وقـــد يكـــون مـــرادها : على الرغم من أننى لم أعد أبرز للناس حتى لا أتعرض لمضـــايقاتهم ، واتقـــاء لشرورهم ، إلا أننى لم أسلم من ظلمهم ، وهاهم قد تجرأوا علـــىّ، وصـــاروا قريبيـــن جدا منى ، بحيث لم يفصلهم عنى سوى قدر أن أمد يدى لدفعهم عنى ..وفيه كناية عن قرب الخطر منها .

كـــأن قبيلتها لم يعد لها حُرْمة ، فصارت حمىً مستباحا لكل أحد ، حتى إن المرأة تفاجأ بمن يدخل عليها دارها معتدياً ، إذ ليس هناك من ذائد أو حام ، وصدق القائل:

تَعْدو الذئابُ على من لا كلابَ له   وتَتّقى مربضَ المسْتَأسد الضّاوى

ومن هنا فإن المرأة تغض بصرها ، وغض البصر قد يكون عفّةً ، وقد يكون ذلة وانكسارا ..

تقول : لقد تحول حالى من عز إلى ذل ، ومن قوة إلى ضعف ، ومن تيه وافتخار إلى ذلة وانكسار .. إن قوانا خارتْ ، وأسنتنا فلّت ، وأسلحتنا كلت ..

وإذا مـــا ناحت حمامة على غصن تدعو حزنها ، ليهتاج بكاؤها ، ويمتد صوتها ، فإنى أجاوبها ، قائلة : واصباحاه!

وعلـــى رواية أبى العلاء يكون المعنى : إن هذه الحمامة إذا ما وقفت على غصن تذكر فرخها الهالك فإننى أجاوبها بكاء ببكاء .

" واتخـــاذ الحمامة رمزًا للفقد والوفاء ، والاهتزاز لصوتها الشجى ، ليس جديدًا على الشعر العربى " [٢] فحديث الشعراء عنها قديم وكثير ..

ثـــم تصفه بالفصاحة والبيان ، فهو إلى جانب الشجاعة يملك لسانا حادًّا مُفْحِما ، فتقول : لقد كنت تفحم الخطباء الذين ينتخبهم أقوامهم ويقدمونهم ، واثقين بنصرهم

---

[١] نفسه ٩١١.

[٢] في الشعر الإسلامى والأموى ٦٢ د / عبد القادر القط .

عليك ، لأن خطيبهم ذو فصاحة معهودة فيه ، وحسن بيان معروف به ، فلما تكلمت أَعجزْتَه وأعيَيْتَه ، وبان لقومه تافها ، متألما ، لايدرى ماذا يفعل ؟ .

وإن هذا الوجع الذى ألمّ به مثل وجع تلك الناقة التى فسد حياها ، فعولج بملح ، فـأخذت تـتألم وتتوجع .. والمقصود : أنك أظهرت عواره ونقصه ، وفضحته أمام قومه .

والعاطفـة فـي القصـيدة قوية ، وواضح ما فيها من حزن شديد ، وقد أسهمت القافـية فـي إظهـار هذه اللوعة بشكل بين . فكسْر حرف الروى ينبئ عن النفس المكلومـة ، والألـف قبله يوحى بالنواح والاستغاثة والندبة .. وهناك حروف المد واللين التى تناسب الحزن والنواح ..

وبحـر (الكامل) الذى اختارته الرائية يصلح لكل أنواع الشعر فهو بحر يستوعب موضـوعات شـعرية شـتىءإنه بحر " ينسجم مع العاطفة القوية النشاط والحركة ، سواء أكانت فرحة قوية الاهتزاز ، أم كانت حزنا شديد الخلجة .. " [١]

* * *

(١) الشعر الجاهلى / ٦١ د / محمد النويهى .

وقالت **صفية الباهلية** ترثى زوجها [١] ، وقيل : أختها ، وقيل ترثى أخاها) (من البسيط) :

١- كنّا كغُصْنَيْن في جُرْثومة سَمَقَا	حيناً بأحسن ما تَسْمُو له الشجر
٢- حتى إذا قيلَ : قدْ طالَتْ فروعُهُما	فطابَ فَيْئَاهما ، واسْتنْظِرَ الثمر
٣- أَخْنَى على واحد رَيْبُ الزمان ، وما	يُبْقِى الزمانُ على شئ وما يذر
٤- كنَّا كأنجمِ لَيْلٍ وسْطَها قمر	يَجْلُو الدُّجى ، فهوى من بيننا القمر
٥- فاذهب حميدًا على ما كان من مَضَض	فقد ذهبْتَ وأنتَ السمع والبصر
٦- ليتَ الجبالَ تدَاعتْ يوم مصرعه	دَكًّا فلم يَبْقَ من أحجارها حجرُ

تقول : كنا كفرعيْن ، نبتا من أصل واحد ، وسقيا بماء واحد ، فنميا ، وطالا ، وظلا على ذلك زمنا ، " وبقيا يزدادان على أحسن ما تزداد له الأشجار ، حتى إذا فرعا ، وآتت أغصانهما وبرعا ، وكثر ورقهما ، واستطيب ظلهما ، وصارا يُنتظر ثمرهما ، وقف الأمر بهما دون الغاية المرجوة فيهما ، ودعى أحدهما مقدما على الآخر للمحتوم لهما ... " [٢]

---

[١] المرزوقى برقم ٣٢٦ ، التبريزى ٦٥ ، المعرى ٣٢٤ ، شاعرات العرب / بشيريموت ٩٨ ، رياض الأدب ١٣٧ .. والبيتان ٥ ، ٦ انفرد بهما المعرى .

وقد وردت الأبيات الثلاثة الأولى منسوبة إلى الخنساء في ديوانها ـ بتحقيق الدكتور إبراهيم عوضين ٣٨٨ ، وروايتها .

كنا كغصنين في جرثومة بَسَقَا	حينا على خير ما يُنْمَى له الشجر
حتى إذا قيل ، قد طالت عروقهما	وطاب غرسهما واستُوثق الثمر
أخنى على واحد ريب الزمان وما	يُبْقِى الزمان على شئ وما يذر

والبيتان الرابع والخامس في ص ٣٨٧ وروايتهما :

كنا كأنجم ليل وسطها قمر	يجلو الدجى ، فهوى من بيننا القمر
فاذهب حميدا على ما كان من حدث	فقد سلكت سبيلا فيه معتبر

ب ١ : الجرثومة : الأصل . سمقا : طالا .

ب ٢ :الفئ : الظل . استنظر : انتظر ، ويروى (واستنضر) أى وجد ناضرا غضا .

ب ٣ : أخنى عليه : أفسد عليه .

[٢] المرزوقى ٩٤٨.

فــي هــذا الوقت ، وبينا هما في أحسن صورة ، وأبهى زينة ، وأجمل مظهر ، وأطيــب صحبة .. صوّب الزمان سهمه النافذ إلى أحدهما ، فاختطفه وهو في ريعان فتوته ، واكتمال قوته ..

وحين اختطف الأول أريد لتوأمه أن يظل منكسرًا ، حزينًا ، فأنى له أن يحيا بدون توءمه ؟

وهــذا هو دأب الزمان ، وديدن الدهر ، ما يعطى إلا ليأخذ ، وما يحلى إلا ويُمرّ ، وما يهب إلا ليسلب ، وما يعطى إلا ليغصب ..

لقــد كان الفقيد قمرًا ، يضئ للسارين من تلك القبيلة ليلهم المظلم ، في حين كان بــاقى أفــراد القبــيلة كالنجوم .. وها هو القمر قد هوى ، فصارت القبيلة في ظلام دامس ، وليل حالك .

وفيه إشارة إلى أن الفقيد رجل ــ قد يكون أخاها ، أو زوجها ــ وكانت له مكانة ومــنزلة بيــن القوم ، ربما كان سيدًا ، أو قائدًا ، أو من أشراف القوم .. " وتكمن جمالــية هذه الصورة في حالتين شعوريتين ، أولاهما : تهاوى القمر ، وهى حركة تراجــيدية كاملــة ، وثانيــتهما : تحسس غياب القمر ، وسيطرة الظلمة التى ترغم الوعــى علــى تفقــد العنصــر الغائب ، والأهم من ذلك أن الصورة على الرغم من وقائعيتها وخارجيتها ، تعكس حالات التداخل وتفاعلاته ، نظرًا للعلاقة الوثيقة القائمة بين الذات والموضوع في الصورة " . [١]

والبيتان (٥ ، ٦) اللذان أضافهما المعرى يؤكدان أن الفقيد رجل ، وهى تخاطبه قائلــة له : اذهب محمود السيرة ، كما كنت محمود المسيرة ، وإن كان ذهابك مؤلمًا ممضًا ، وكيف لا ، وقد كنت بمثابة السمع والبصر ؟ ! .

لقد تزلزل كيان القبيلة بعد موته ، واهتزّ عرشها ، فليت الجبال ــ وهو جبل منها ــ تداعــت ، أى تهــاوت أو نادى بعضها بعضا لتندك دكاً ، فتزول أحجارها ، حزناً وأسفاً على فقيد من أمثالها .

---

[١] يوسف اليوسف / مقالات في الشعر الجاهلى ٣٥٧.

وقالت عمرة الخثعمية ترثى ابنيها أو أخويها [١] : (من الطويل)

١- لقَدْ زَعَمُوا أَنّى جَزِعْتُ عَلَيْهِمَـــــا	وَهَلْ جَزَعٌ أن قُلْتُ : وابأباهما ؟!
٢- هما أخَوَا في الحـــــرب مَنْ لا أَخَا لَهُ	إِذَا خَافَ يَوْماً نَبْوَةً فَدَعَاهُمَـــا
٣- هُمَا يلبسانِ المجـــدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ	شَحِيحَانِ ما اسْطَاعَا عليْه كِلَاهُمَا
٤- شهابَانِ مِنَّا أُوقِدَا ثـــمّ أُخْمِدَا	وكانَ سَنًا للمُدْلِجِينَ سَنَاهُمَـــا
٥- إذا نَزَلَا الأَرْضَ المَخُوفَ بَهـا الرَّدَى	يُخَفِّضُ منْ جَأْشَيْهِمَا مُنْصُلَاهُمَــا
٦- إذا اسْتَغْنَيَا حُبَّ الجَمِيعُ إِلَيْهِمَــا	ولم ينْأَ من نَفْعِ الصّديق غِناهما
٧- إذا افْتَقَرا لم يَجْثُمَا خَشْيَةَ الرَّدَى	ولم يَخْشَ رُزْءاً منهما مَوْلَيَاهمـا
٨- لقد ساءني أنْ عَنَّسَتْ زَوْجَتَاهُمَـــا	وأَنْ عُرِّيَتْ بَعْدَ الوَجَى فَرَسَاهمـا
٩- ولَـنْ يَلْبثَ العَرْشَانِ يُسْتَلُّ مِنْهُمَا	خِيَارُ الأواسِي أَنْ يميل غَمَاهُمَـــا

لقد أدرك الناس مدى حزن عمرة ، وشدة غمها ، وعظم جزعها على فقد ابنيها ، فكأنهم أنكروا عليها هذا القدر العالى من الحزن .. فلما بلغها ذلك قالت : وهل جزعٌ أن قلت : وابأباهما ؟! .

كأنهـــا رأت أن ذلك الذى أظهرت من الجزع لا يكافئ المفقودَيْن ، إن هو إلا على قدر كلمة (وابأباهما) .. فماذا يكون رد فعلهم لو أظهرتْ ما في قلبها من الحزن؟! .. وهى سخرية منهم ، وتسفيه لموقفهم إذ لا يعلمون قَدْر المبكيّ عليهما .

ثم أخذت في وصفهما ، كتبرير لحزنها ، فقالت : لقد كانا يغيثان الضعيف ، الذى لا ناصر له ، ولقد اتخذا المجد لهما لباسا ، وضنّا به ، فم يتركا لأحد من المجد أدنى نصيب ، والمجد كأنه قدّ عليهما قدًّا ، فهو لباس حسن عليهما ، بحيث لا يكون كذلك

---

(١) المــرزوقى بــرقم ٣٨٦ ، التبريزى برقم ١٢٤ ، المعرى برقم ٣٨٤ ، رياض الأدب ١٤٢ (في أحد عشر بيتًا) ، شاعرات العرب ١٠٦ بشيريموت .

ب١ : وابأباهما : أى بأبى هما .

ب ٢ : يلبسان المجد : أى يتملّيانه ويمتّعان به .

السنا : النار .

ب٩ : الأواسى : جمع آسية وهى الأسطوانة . غماهما : الغمى والغماء : سقف البيت .

لغــيرهما.. لقــد اخــتطفهما الموت اختطافا وهما في ريعان الشباب ، " كانا كنارين أوقدتا ثم أتبعتا بالإخماد " ..[١]

كانــا يضــيئان لنا الطريق ، وما هو إلا أن أخمدا ، فأصبحنا بدون هادٍ .. وهما ضوءان ينيران للضيفان والطراق بالليل ، فنارهما ــ نار القرى ــ تهدى من ضلال ، وتدفئ من برد ، وتسمن من جوع ، وتؤنس من وحشة ..

وإذا كان نفعهما يتعداهما إلى غيرهما فإنهما يعتمدان على نفسهما ، فحين ينزلان الأرض المخوفــة التى لا يؤمن رداها ، يُذم لهما سيفاهما ولا يعتمدان على غيرهما، فيتحملان الشدائد ويقتحمان الأهوال دون استعانة بأحد ، وهوقريب من قول المتنبى:

يُذمُّ لمُهْجَتى ربى وسَيْفــــــى   إذا احتاج الوحيد إلى الذمــــــام

وكقول الآخر :

ولم يَستَشِرْ في أمره غيرَ نَفْسه   ولم يَرْضَ إلا قائم السَّيْفِ صاحبا

وغــناهما يعود على الحى كله بالنفع ، بل إن الغرباء ينتفعون بهذا الغنى ، وهذا يجعل الناس ــ الأقارب والأباعد ــ في حاجة إليهما دوما ..كما قال زهير :

ومن يَكُ ذا فَضْل فَيَبْخَلْ بفَضْله   على قومه يُسْتَغْنَ عَنْه ويُذْمَم

علــى أنهمــا حين يفتقران ، وتضيق بهما الحياة ، يسعيان ويجدان ويمشيان في مناكــب الأرض ، ليكســبا قوتهما بأيديهما ، ولا يحملان غيرهما أعباءهما وتكاليف حــياتهما .. وإنهمــا لا يرضيان أن يكونا أحلاس البيوت ، فهما عصاميان ، عزيزا النفس ..

وممــا يؤلــم الأم أن ابنــيها لــم يهنــئا بزوجتــيهما ، فقد صارتا عانسين،قال المرزوقى:[٢] "كأنهما كانا تزوجا بامرأتين ، ولم يحولاهما ، قال المحقق : ولم يتضح

---

[١] المرزوقى ١٠٨٥.

[٢] نفسه.

لى ما المراد بالتحويل ـــ ولما اتفق عليهما ما اتثق بقيا على حالهما زهدا في النكاح بعدهما ، وعِلْماً بألا اعتياض منهما " .

ويـــبدو لـــى أن قولـــه (ولم يحولاهما) إما أن تكون من الحَوْل ، أى لم يمض علـــيهما حـــول متزوجين . أو أنه كان هناك اتفاق على النكاح ولم يتم ، إذ قتلا قبل البـــناء ، فالتحويل إذا من العزوبة إلى البناء . أو أن التحويل من دار أبيهما إلى دار زوجيهما.

فالأم لم تفرح بابنيها متزوجين .. ولقد عرّيت فرساهما ، وذلك منهم علامة على موت الفارس ، فقد عطلت الفرس عن الكر والفر ، كما قال مالك بن الريب :

وَعَرِّ قَلُوصي في الركاب فإنها سَتَفْلِقُ أكبادًا وتُبكى بواكيا

وتـــرى أن بناء العز الذى كان قائما بابنيها أخذ في التهاوى والتداعى ، فقد كانا عمودين ، وإذا سقط العمود لن يبقى العرش ،وسيهوى السقف .

ويبدو أن هذا المعنى مما تفضله الشاعرات ، فقد رأيناه عند (صفية بنت مسافر) وهى ترثى قتلى قريش يوم بدر :

كانوا سُقُوفَ سماءِ البَيْتِ فانْقَصَفَتْ فأصبح السَّمكُ منها غيرُ ذي عمد

* * *

الفصل الرابع

حَمَاسيَّات الشَّاعرات في ميزان النقد

1. بناء الحماسية ووحدة الموضوع .
2. المعاني والأفكار .
3. الألفاظ والأساليب .
4. التصوير والخيال .
5. الموسيقى .

١-بناء الحماسية ووحدة الموضوع .

ليس في الحماسيات موضوعات متعددة ، فالحماسية تقتصر على موضوع واحد ، إما لأن الشاعرة نظمتها في شكل مقطوعة ، والمقطوعة لا تتسع للتعدد ــ وهذا هو الغالب ــ ، وإما أن أبا تمام اجتزأ هذه الأبيات وانتقاها من قصائد طوال ، فجعلها مقطوعة .

وليس بين أيدينا دواوين لهؤلاء الشاعرات ، ماعدا الخنساء التى لم يورد لها أبو تمام سوى حماسية واحدة من ثلاثة أبيات ... وبمقابلة هذه الأبيات بالديوان [١] وجدت أنها من قصيدة بلغت واحدا وعشرين بيتا ، وهى ليست متتالية ، بل هى مختارة من مواطن في القصيدة ، فأرقامها فيها (٧ ، ١٨ ، ٢٠) .

وبقراءة القصيدة كاملة تبين لى أن أبا تمام آثر الأبيات التى تحمل معانى جامعة ، وأهمل ما عداها ، وما يمكن أن يجد له بديلا عند غير الخنساء .. كما أهمل ما تكرر عند الخنساء مثل مخاطبة عينيها وطلب المزيد من البكاء ، وما تفوق فيه غيرها عليها..

مثال ذلك قول الخنساء :

نِعْمَ أَخُو الشَّتْوة حلّت به ... أراملُ الحيِّ غَدَاةَ البليل

أَتَيْنَه معتصماتٍ به ... يُعْلِنَّ بالدَّعْوى نداء الأليل

فأرامل الحى في الشتاء ــ وقت الشدة وأوان المسغبة ــ يلجأن إلى صخر ، ملتاعات من شدة الفقر والحاجة .

وحين نوازن بينه وبين ما أورده أبو تمام في حماسية (زينب بنت الطثرية) :[٢]

ترى جازِرِيه يُرْعَدَان ، ونارُه ... عليها عَدَا ميل المشيم وصامله

يَجُرّان ثنيًّا خيرُها عظْم جارةٍ ... بصيرًا بها لم تَعْدُ عنها مشاغله

---

[١] الديوان ق ٣٧ ــ ٢٢٩ ــ ٢٣٦ بتحقيق الدكتور إبراهيم عوضين .

[٢] الحماسية رقم ٣٦٧ عند المرزوقى .

نجد زينب قد فاقت الخنساء ، وذلك لأن فقيدها كان يكفى الأرامل حاجاتهن ، ومن ثـم لا يضـطرهن لذل السؤال ، ولا يكلفهن مشقة الذهاب إلى داره .. ثم إنها جعلته مشغولاً بهنّ، بحيث لا يشغله عن أمورهن شاغل .

أما الخنساء فقد جعلت الأرامل تسألن صخرًا ، ويتكلفن مشقة الذهاب لذلك ، وقد ضـجن بالشـكوى ، ومـا فعلـن ذلك إلا لشدة المسغبة ، وأنهن لا حَظ لهن من اهتمامات صخر .

فلعل أبا تمام ـ وهو الشاعر الخبير ـ ترك الأبيات لذلك ..

وقس على ذلك سائر الأبيات .

هـذا ما تصرف فيه أبو تمام . أما النوع الآخر ـ وهو ما نظمته الشاعرات في صـورة مقطوعات ـ فهو يتناسب وطبيعة الموضوع ... فالمرأة في تحميسها القوم تعمد إلى عدد قليل من الأبيات حتى يسهل حفظها ، وترديدها على الألسنة ، ومن ثم تحقق هدفها في إلهاب مشاعر القوم ..

وقد يختلط الفخر بالحماسة وكذا الرثاء ، ولكن هذه الموضوعات تربطها علاقات وطيدة ، كما أسلفنا .

وشـعر المـرأة غالـبا ما يكون نفثات حارة ، وزفرات أليمة ، تخرجها في شكل مقطوعات قصيرة تنفيسًا عن نفس مكلومة ، وقلب مصدوع ، فترتاح بعدها ولو إلى حين .

ولما كانت المقطوعات لا تحتمل إلا موضوعًا واحدًا فلم يكن مجال لدراسة الوحدة فيها ...

وطبـيعة شـعر الحماسـة والرثاء وظروفهما قد تضطر الشاعرة إلى عدم التزام الوحـدة العضوية في الحماسية . وهذا ما لاحظه الدكتور محمد غنيمى هلال [1] في قصيدة (أم السليك) ...

---

[1] النقد الأدبى الحديث ـ ٢٧٣ ـ القاهرة ـ دار نهضة مصر .

وذلك لأن الراثية في حالة لم تكن تسمح لها بالترتيب في إخراج مشاعرها ، وإنما تشعر كيفما اتفق .

* * *

٣- المعاني والأفكار :

وقد دارت حول عدة محاور ، منها :

نـداء الـثأر ، وذلــك لأن الثأر قانون عندهم ، فهو يؤرقهم ، ويذهب النوم من أعينهم ، وبعضهم يحرم الخمر والنساء على نفسه حتى يدرك ثأره .

إن الثأر يكاد " يكون عقيدة من العقائد الدينية عند العرب ، لما يكتنفه ــ أحيانا ــ مــن (حلــف) و(قســم) بوجوب الأخذ بالثأر ، ولما يحوط به من شعائر الدين عند الجاهليين " . [١]

والشاعرة الجاهلية كانت تقوم بهذا الدور علىخير وجه ، فتحرض القوم ، وتثير فــيهم الرجولة والنخوة ، وتحذرهم من التثاقل والتباطؤ في النهوض بذلك وترى أن الــرجل مهمته الأولى هى حمل السلاح ، والذود عن الأعراض ، ولا ينبغى أن يقدَّم على ذلك شئ آخر .

ومــن ثــم ترســم لقومها المتكاسلين عن إدراك الثأر صورة مزرية قبيحة ، إذ تشــبههم بالنســاء ، فتطلــب إليهم حينئذ أن يضعوا السلاح ، فهو ليس لهم ، وأن يفعلــوا مــا تفعــل النساء من اكتحال ، وتزين ،ولبس الثياب المزخرفة ، ثم تضيّق الخــناق علــيهم ، وتقــول لهم لسوف تُفْضَحون أمام القبائل الآتية من شتى أنحاء الجزيرة ، فعيشوا مع الوحوش ، ولا تردوا الموسم:

إن أنــتمُ لَمْ تَطْلبُوا بـأخيكــــم	فَذَروا الســـلاح ووحّشُوا بـالأبْرَق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا	نقب النســاء فبئس رهط المرهق
ألهاكم أن تطلبوا بأخيكـــــم	أكل الخزيــــر ولعق أجود أمحق

وكــذا فعلــت (كبشة) أخت عمرو بن معديكرب التى حاصرت أخاها ، وشددت الحصــار عليه ، حتى لا يفكر ــ مجرد تفكير ــ في قبول الدية ، وحثت القوم على مخالفــته ، ونهوضــهم لإدراك ما قعد عنه ، وإلا فجدّعوا آذانكم ، حتى لا تسمعوا

---

[١] دراسات في الشعر الجاهلى ٥٢ أنور أبو سويلم ، والمفصل في تاريخ العرب ٤٠١/٤ جواد على .

تعيـــيركم ...ثـــم كونـــوا في آخر الصفوف ، بعد النساء حين ورود الماء .. فمِثْلكم لامكان له في عالم الرجال :

فإن أنتُمُ لم تثأروا واتَّديْتُمُ   فمشّوا بآذان النعام المصلّم

ولا تردوا إلا فُضُولَ نسائكم   إذا ارتملَتْ أعقابهن من الدم

وقد قالت عميدة الرثاء ــ الخنساء ــ في ذلك المعنى (وهى ليست في الحماسة):

فتغسلوا عنكمُ عاراً تجللكم   غَسْلَ العوارك حيضاً بعد أطهار

فالموتور في نظرهم نجس ، ولا يطهر من نجاسته تلك إلا إذا أدرك ثأره .."وكان تحريض المرأة مستجابا دائما ، لأنه صادف هوى من نفوس الثائرين " [١] .

وكـــان مـــن عقيدتهم أن القتيل يظل قبره مظلما ، ولن يضئ إلا بعد إدراك ثأره ، ولذا قالت كبشة على لسان أخيها عبد الله :

ولا تأخذوا منهم إفالا وأبكرا   وأترك في بيت بصَعْدَة مظلم

ويشـــتد حـــنق الشاعرة على القتلة ، وتتمنى أن لو شفى وليّها غيظها ، وأذهب همها وغمها ، وذلك بأن يضيّق الخناق على القتلة ، ويحبسهم محبسا ضيقاً ، حتـــى لا يجدوا موئلا ، تقول (كنزة) لابنها شملة :

إن يكُ ظنّىْ صادقاً ، وهْو صادقى   بشمْلة يحبسهم بها محبسا وعرا

وهى تقوم بتشجيع ابنها ، وتجعله أهلا لثقتها ، وهو لن يخيب ظنها ...

وتستحضـــر الشـــاعرة شـــريط سير المعركة التى قتل فيها فقيدها ، فتثنى على شـــجاعته وحسن بلائه ، وتتهم القوم بالتخلى عنه ، وعدم نصرته ، وماكان لهم أن يفعلوا إذ كانت حياته وقفا على القبيلة .. كما أنه كان بوسعه الفرار لكنه أبى إلا أن يـــــتلقى الـــــرماح والأســـــنة بطـــــلا ، تقـــول (أم الصـــــريح الكـــــندية) :

أبَوْ أن يفرّوا والقَنَاَفى نُحُورهم   ولم يرتقوا من خشية الموت سلما

---

[١] المرأة في الشعر الجاهلى ٦٣٠.

ولو أنهم فروا لكانوا أعـــزة   ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

ـ الفخر بالقوم :

والشـــاعرة تفخـــر بقومهـــا ، وبحســـن بلائهم ، وعزة النصر الذى حققوه على أعدائهم ، رغم الحشود الهائلة ، تقول عاتكة بنت عبد المطلب :

سائل بنا في قومنـــــا   وليكف من شر سماعـــه
قيسا وما جمعوا لنـــــا   في مجمع باق شناعـــه
فيه السنوَّر والقنـــــا   والكبش ملتمعا قناعـــه
بعكاظ يعشو الناظريْـــ   ـن إذا هم لمحوا شعاعـــه
فيه قتلنا مالكـــــا   قَسْرا وأسلمه رعاعـــه
ومُجَدَّلاً غادرْنـَــــه   بالقاع تنهسه ضباعـــه

وفـــي الـــرثاء يغلب عليهن (<u>رثاء المَثَل</u>) ، فالمرأة حين ترثى فقيدها إنما ترثى الشيم والأخلاق والمثل التى ضاعت بفقده ، وتنحصر هذه المثالية في :

ـ الشـــجاعة والإقـــدام عـــند الكر والفر ، وشدة البأس ، وقوة الشكيمة ، وعدم المـــبالاة بالمخاطـــر ، واقتحام الأهوال ، والاستنكاف من النكوص والفرار . والحجة القوية ، وبعد النظر ، وفصل الخطاب .

ـ الكـــرم الفياض ، وخموص البطن ، واعتماد الغير عليه ، بينما يعتمد هو على نفسه ..

ـ كل وقته لصالح قومه ، ونفعه يعم القاص والدانى .

ـ هو الهادى لقومه ، الذى يهديهم الطريق ، وينير لهم الليل البهيم ..... إلخ .

<u>وتلجـــأ الشاعرة إلى الطبيعة</u> طالبة إليها مشاركتها مشاعرها ، فتود أن لو تهاوت الجبال ، واقتُلعت الأشجار ، وانهدّ كل شئ ، كما تهاوى فقيدها ، وتزلزل كيانها .

تـــتجه إلـــى الجبل وإلى شجرة الأثل فترى كلاً واقفاً في مكانه ، فتعجب إذ تخلت الطبيعة عنها ، وتركتها وحدها تعانى مرارة الفقد ..

إنها " شناعة الموت حقا ، إننا نحن البشر لسنا بشيء في الكون ذى بال .. يرى المفجوع عظم خطبه هو ، ويرى في نفس الوقت هوانه أمام الكون والحياة والأحياء . فالكون لازال على انتظامه ، والحياة لازالت في تدفقها وصخبها ، والأحياء لازالوا مقبلين على مآكلهم ومشاربهم ولذائذهم ومتعهم " [١] .

وفي ذاكرتنا ذلك البيت المشهور في هذا المعنى للفارعة بنت طريف :

فيا شَجَرَ الخَابُورِ مَالَكَ مُورِقًا ... كأنك لم تَجْزَعْ على ابْنِ طَرِيفِ

– ويتبدى ضعف الأنثى – مما يعد سمة مميزة لرثائها – حين نجدها تصور المرثى جبلًا ، تفئ إلى ظله ، وتأوى إلى كنفه ، وتحتمى بحماه ، لقد كان عزها فصارت إلى ذل ، كانت تمشى بين الناس مفاخرة بحماها وعزها ... والآن هى غاضة بصرها انكساراً وذلة . .

– ونجد المرأة الراثية يتضاعف حزنها على مرثيها لأنه لم يهنأ بزواجه طويلا ، وترك زوجه قد عنّست .. وهذا من اهتمامات المرأة ..

– وكذلك نجدها ملتاعة أشد الالتياع لأن فقيدها لم يخلف أبناء يحملون الراية من بعده ، ويرفعون اسمه ، ويبقون ذكره ...

– ويبدو لى – أيضا – أن اهتمام المرأة بالبيت وبنائه ، وقيامه على عمد وأركان .. كان دافعاً لها لتتخيّل مجد القبيلة في صورة بيت قد انهدم عموده ، وسقط سقفه ، وترى المستقبل حالكا بالسواد ، والقبيلة لن تقوم لها قائمة بعد هذا الفقيد .

– والمرثى نادر الوجود ، لا مثيل له ، قد يشاركه عدد من الناس اسمه ، لكنه بينهم نسيج وحده ، فقد عقمت النساء أن يلدن مثله .

* ولم نجد في شعرهن جديدًا مبتكرًا – إلا ما أشرنا إليه – فيمكن أن نرد جل المعانى في أشعارهن إلى (النمطية الاتباعية) .. فحين نقرأ قول شاعرة الحماسة :

أبَوْا أنْ يفرّوا والقَنَا في نُحُورهم ... وأن يرتقوا من خَشْيَةِ الموتِ سُلَّما

---

[١] ثقافة الناقد الأدبى ٣٤٣ ، ٣٤٤ د / محمد النويهى – ط ثانية – بيروت – نشر الخانجى .

نستحضر من فورنا قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنـه ولو رام أسباب السماء بسلـم

وكـذا الدعاء للقبر بالسقيا ، فهو" من الأساليب التى وردت في الشعر الجاهلى ، ويبدو أنها أصبحت بعد ذلك من الأنماط الأسلوبية التى تتصل بدفن الموتى، وما يتبع مواراة الجدث ترابه ونثرالماء فوقه " .[1]

* ويلاحـظ فـي مراثى النساء قلة شعر الحكمة المتصلة بالموت . . لعل ذلك لأن الحكمـة عمل عقلى ، والمرأة تستبد بها عاطفتها وتسيطر عليها مشاعرها فلم تترك للعقل مجالا حينئذ ، بخلاف الرجل الذى يستمسك ويتصبر ويتجلد .

ـ وفـي الحماسـيات الهجائـية وجدنا منها ما يتعلق بالحماسة والحرب وإدراك الثأر، والتهديد والوعيد ولا تبعد هذه الحماسيات عن باب الحماسة في معانيه .

وهناك هجاء مقذع من امرأة لزوجها ،وهى مبالغةٌ فيه مبالغة شديدة .

* ويتمـيز شـعر المـرأة في الهجاء بأنه " يميل إلى الزراية بالجسد أكثر من الزراية بالأخلاق والطباع " [2]

وقـد وجدنـا ذلك في هذه الحماسية ، وحماسيات أخرى من نساء لرجال ، ومن كنزة أم شملة لـ (مية) محبوبة ذى الرمة ، وفيها مبالغة أيضا ...

* وبذلـك يمكـن القول إن المرأة كانت صادقة الى حد بعيد في حماسياتها ، فلم تجاوز الحقيقة كثيرا ، عدا حماسياتها في الهجاء فيكاد يكون مبنيا على المبالغة .

والمعانى واضحة مكشوفة ، بينة معروفة ، ليس فيها غموض ولا إغراب .

* * *

---

[1] شعر الرثاءفي العصر الجاهلى ٢٥٨ ، شعر الرثاء في صدر الإسلام ٨٢ ، ١٧٠ د / مصطفى الشورى

[2] المرأة في الشعر الجاهلى ٦٤٠ .

٣-الألفاظ والأساليب .

يقول الدكتور زكى المحاسنى : [١]

" إننا إذا تتبعنا ألفاظ لغة العرب ، وتقصينا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها في المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة ... وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال ، في أروع بيانها ، وأبرع تشابيهها"

" ولما كان الفخر والحماسة من نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، فقد حفلا بالمغالاة ، وانطلق فيهما الخيال مضخما مهولا ، وبرزت فيهما الحقائق التاريخية مجلببة بجلباب العاطفة والخيال ، واشتدت فيهما الأساليب الكلامية والألفاظ والحروف اشتدادًا هدارا ، يرافق انفجارات النفوس واصطخابات القلوب ، كما يرافق في مجالات القتال صهيل الخيول ، وقعقعات الأسلحة ، وجلبات المنون " [٢]

غير أن المرأة لم تشارك في المعركة ، فلم تركب فرسًا ،أو تحمل سلاحًا ، أو تبارز قرنًا ، ومن هنا جاء شعرها أقل من شعر الرجل في حدته وعنفه ولاسيما في حديث المعارك ..

أما في مجال التحميس فكانت عاطفتها حادة عنيفة ، وجاء شعرها ــ تبعا لذلك ــ في أساليب وألفاظ قوية ، تحمل شحنات عاطفية حارة ..

لنتأمل قول (كنزة) وهى تحث ابنها على الثأر :

إن يك ظنى صادقاً وهو صادقى ... بشمْلة يحبسهم بها محبسا أزلا

فيا شمل شمّر ، واطلب القوم بالذى ... أصِبْتَ ولا تقبلْ قصاصاً ولا عقلا

فنلاحظ تكرار حرف القاف في البيتين (ست مرات) وهذا الحرف يناسب القتل والعراك وقعقعة السلاح .

---

[١] شعر الحرب في أدب العرب ٣٢.

[٢] الفخر والحماسة ٦.

ثـم تأمل تكرار مادة (حبس) في (يحبسهم محبسا) .. وتكرار اسم (شملة) وقولها (يا شمل شمر) ..

والتتابع السريع لأساليب الإنشاء (يا شمل ـ شمر ـ اطلب ـ لا تقبل) كل هذا في بيت واحد .

لـم يكن ذلك كله إلا صدى للعاطفة الحارة ، والمشاعل الملتهبة للشاعرة ، والتى تتمـنى أن لـو قـام ابـنها بتحقيق ذلك كله .. وإننى لأشعر أنها ـ حين تقول له (يحبسهم بها محبسا أزلا) تريد أن يقتلوا خنقاً ، أو يهلكوا جوعا وعطشا على يدى شملة .

وتجد هذا العنف مسيطراً على (عاتكة بنت عبد المطلب) ، ويتبدى ذلك من خلال ألفاظهـا (شـر ـ شناعه ـ السنوّر ـ القنا ـ يعشى ـ قتلنا ـ قسرًا ـ مجدّلًا ـ تُنهسه ـ ضباعه)

إنها ألفاظ من معجم المعمعة ، فتجد أدوات الحرب ، والقتل ، ونتيجة المعركة في صورة ذلك المجدل الذى ترك نهشا للضباع .

وكذلك نلمح هذا العنف والحدة في قول امرأة من بنى عامر :

تُعِدْ فيكمُ جَزْرِ الجَزُور رماحنا ويمسكـن بالأكباد منكسرات

ولا يخفى ما في (جزر الجزور) من التشفى الذى تتمناه ، والغيظ الذى تعانيه .

وهكـذا في سائر شعر النساء ، نلاحظ سيطرة هذه الروح الظامئة لسفك الدماء ، ومعجم الحرب طاغ بشكل واضح .

وقد نعجب للمرأة التى جبلت على الرقة والحنان ، كيف تحولت بهذه الدرجة حتى صـار قلـبها مشربا بحب الدماء ، ولن يشفى غيظ قلبها إلا رؤية الدماء تسيل على الأرض سيلانا ،والقاتل قد صار مزقا وأشلاء ؟

لكــن هذه الحدة والعنف والشدة لا تتعارض مع طبيعة تلك الأنثى ، بل هى ناتجة عنها ، إنه ما يسمى بـ (رد الفعل) ، فعلى قدر حبّها وتعلقها بفقيدها وحزنها عليه يكون تطلعها للانتقام من القاتل بصورة تشفى صدرها ، وتذهب غيظ قلبها ..

* وهــناك أنماط تعبيرية تــتكرر على ألسنة سائر الشعراء الجاهليين ، وقد ذهبت المرأة مرددة لها ، ومن ذلك :

* (لا تبعد) وما شاكلها ، وهى صيغة نمطية تترددفي الرثاء القديم ، وتدل على فداحة الخطب ، وشدة المصيبة ، قالت شاعرة الحماسة (مية بنت ضرار) :

لا تَبْعَدَنّ وكل شئ ذاهـــبٌ   زَيْن المجالس والنّدىّ قَبيصًا

وقالت فاطمة بنت الأحجم :

إخوتى لا تبعــدوا أبــدا   وبلى والله قد بعــدوا

* (إن يك ظنى صادقا ...) وقد وجدناه في حماسيتى (كنزة أم شملة) ، وكذا في حماسية لامرأة من بنى عامر .

* (التلهف) .. قالت شاعرة الحماسة :

فلهفى عليك ابنَ الأشَدّ لبهْمة   أفَزّ الكُمَاة طعْنُها وضرابهــا

وقالت كنزة :

لهفى على القوم الذين تجمعوا   بذى السيد لم يلقوا عليا ولا عمرا

وصــيغ الــتلهف ليست مقصورة على النساء كما ذهب الدكتور الحوفى ، ولكنها عند الرجال كذلك .

* (سائل بنا) في مقام الفخر .. وهو في شعر عاتكة بنت عبد المطلب ، ونجده في قول ضرار الفهرى ـ في يوم عكاظ أيضا ـ : [١]

ألم تسأل الناس عنا شأننا   ولم يثبت الأمر للغابــر

---

[١] الأغانى / ثقافة ٢٢/٧٢

* وحين ترثى الشاعرة فقيدا لها فهى في معرض قصٍ لما تعانى ، والنساء يُجدن فن القص ، وهنا يسيطر الأسلوب الخبرى ..

أمـــا في معرض الحماسة فتغلب الأساليب الإنشائية مواكبة الانفعال والتوتر ، نلحظ ذلك في قول كبشة :

أرسل عبد الله إذ حَانَ يَوْمُــــه	إلى قومه : لا تعقلوا لهم دمــــى
ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكـــرا	....
ودع عنك عمرا	وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فإن أنتم لم تثأروا واتديتــم	فمشوا ....
ولا تردوا إلا فضول نسائكـــم	....

وفي قول أم عمرو بنت وقدان ......

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكـــــم	فذروا السلاح ووحشوا بالأبـرق
وخذو المكاحل والمجاسد والبسوا	نُقَبَ النساء فبئس رهط المرهق

وكـــأن الشاعرة ــ حين افترضت القوم قد تخلوا عن رجولتهم ــ جعلت لنفسها الحق في أن تأمر وتنهى ، فهذ الحق قد سلب من هؤلاء المتكاسلين القاعدين .

والأم ــ لأنهـــا أم ــ تفعـــل ذلك مع ابنها ، كذا وجدناه في شعر (كنزة) تخاطب ابنها شملة :

فيا شمل شمر، واطلب القوم بالذي	أصبت ولا تقبل قصاصا ولا عقلا

ففـــى هذا البيت : نداء ،وأمر ،ونهى ، ثم عطف على النهى ، فكأنها قالت : ولا تقبل قصاصا ولا تقبل عقلا .

والشاعرة إنما تلجأ لذلك حتى تلاحق المخاطب ، وتحاصره ،وتضيق عليه الخناق حتى لا يفكر في شئ سوى الثأر .

ــ أمـــا فـــي الـــرثاء- كما ذكرت ــ فالأسلوب الخبرى له الغلبة ، خذ مثالا لذلك حماســـية (فاطمـــة بنـــت الأحجم) ، ففيها ستة أبيات ، في البيت الأول فقط أسلوب إنشاء تخاطب فيه عينيها ، ثم توالت الأبيات يسيطر عليها الأسلوب الخبرى ..

وكـــذا مرثيـــتها الثانـــية ـــ من ستة أبيات ـــ بدأت بإنشاء وانتهت بإنشاء ، وما بينهما أساليب خبرية .

والأسلوب الإنشائي الذى تبدأ به الحماسية غالبا ما يكون استفهاماً أو نداء ..

* تتســـم حماسيات النساء بسهولة الألفاظ ووضوحها ، إذ إن ذلك يتفق وطبيعة المـــرأة من جهة ، ويواكب الظروف والمناسبات التى استدعت ذلك الشعر من جهة أخرى ..

ثـــم إن الشـــواعر يفضن بما يشعرن مباشرة ، فلا يستطعن كتم أحزانهن ، وإنما يبحن بما في قرائحهن ، فلا مجال لصقل ، أو تهذيب ..

* * *

٤-التصوير والخيال .

والمــرأة لا تجنح إلى الخيال كثيرا ــ وقد ذكرنا ذلك آنفا ــ ، غير أن المرأة في معــرض تصــويرها فقــيدها ، وحثها قومها على النهوض بالثأر تلجأ إلى التصوير مستخدمة الوسائل البيانية حتى تثير القوم وتشحذ هممهم .

والأداة المفضــلة فــي الشــعر الجاهلى ــ لدى الرجال والنساء على السواء ــ التشبيه ، لأنه " لا يحتاج بعداً في الخيال ، ولا عمقاً في التصوير ، وهو لون مفرد، بل هو صبغ من أصباغ لون مفرد ، هو لون التصوير " . (١)

لنتأمل هذين التشبيهين في شعر (صفية الباهلية) ترثى فقيدها :

كنا كغُصْنَيْن في جُرْثُومَةٍ سَمَقا ... حيناً بأحسن ما تَسْمو له الشجـــر

حتى إذا قيل قد طالت فُرُوعُهُمــا ... فَطَابَ فَيْئاهما واسْتُنْظِرَ الثمـــر

أَخْنَى على واحدٍ رَيْبُ الزمان ومــا ... يُبقي الزمان على شئ وما يَـــذر

كنا كأنجم ليل بينـها قمــــر ... يجلو الدجى ، فهوى من بينـها القمر

اخــتلفوا في هذا الفقيد ، من يكون ؟ وأنا أرجح أن يكون أخاها ، فالغصنان نبتا مــن أصــل واحد ، وسقيا بماء واحد ، كأنهما توءمان ، ترعرعا معا ، وصارا في أجمــل صــورة ، وأبهــى منظر ، كانا على وشك الإثمار ــ ربما تشير إلى الزواج والتناسل ــ وفي هذا الوقت خصوصا يكون الشجر معجبا للناظرين ..

فجــأة ، سقط أحد الغصنين ، فكيف يكون حال التوأم ؟ لابد أنه سيصاب بالهزال والاصفرار ، فيذوى عوده ، ويذهب ماؤه ، ويصبح هشيما تذروه الرياح ..

إنها صورة رائعة ، رسمتها الشاعرة ببراعة عن طريق التشبيه في أبسط صوره حيث ذكر فيه الطرفان والأداة (الكاف)..

وكــذا التشبيه الثانى ، فالفقيد كان كالقمر ، بينما سائر القبيلة نجوم ليل ، فهوى القمــر .. أى فأصــبحت القبـيلة فــي ظلام .. وعناصر الصورة كلها من الطبيعة المشاهدة ..

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربى ١٤٥ - ١٥٢

وبساطة التشبيه نراها في قول (رَيْطة بنت عاصم) :

غدوا كسيف الهند وُرّاد حَوْمة   من الموت أعيا وردهن المصادر

فهــي تشــبه بــنى قومهــا حال توجههم الى ميدان المعركة بالسيوف الهندية ، المعروفة بالحدة الشدة والمضاء والحسم .

وفي الشطر الثانى استعارت دار المنايا لأرض المعركة ، لأن من وردها لا يصدر عنها ، إذ سيلقى حتفه ..

كما كنت عن اشتداد المعركة بتشابك القنا ، قالت :

فوارس حاموا عن حريمٍ وحافظوا   بدار المنايا والقَنا مُتَشَاجِر

وحيــن أرادت (أمرأة من بنى عامر) تنفير قومها من الحرب استمدت من البيئة الماديــة المشاهدة صورة تلك الجمال المسنّة، التى لم تعد تقوى علىتحمل المشاق ، فقد جهدها الاستعمال ، وطول الزمن ، وبعيد ما بين الفتىّ والمسنّ:

وحرْب يضجّ القَوْم من نَفَيَانها   ضجيج الجمال الجلّة الدّبِرات

وللجبل عند العرب مكانته المعروفة ،وحين أرادت (فاطمة بنت الأحجم) تصوير مدى مصيبتها بفقدها زوجها شبهته بالجبل ، حيث منافعه العديدة عندهم ، فيلوذون بظله ، ويكتنون عنده من أذى القر ، ويعتصمون به وقت الشدة والبأس ، وهو رمز الثبات والعزة والشموخ ، وعليه توقد نار الهداية ...

وقد كان زوجها لها كذلك :

قد كنْتَ لى جبلاً ألوذُ بظله   فتركتنى أضحى بأجرد ضاح

وقــد تكون أداة التصوير (الكناية) ولكنها في أبسط صورها ، فمثلا حين أرادت (زينب بنت الطثرية) أن تخبر عن طول قامة أخيها قالت :

.... طويلا حمائلــــه

وكذلك حين أرادت نعته بأنه مطعم النصر ، وهازم الأقران قالت :

وقد كان يروى المشرفى بكفه   ....

وكنتْ (أم ثواب) عن صغر ابنها وعجزه عن القيام بنفسه في طفولته ، فقالت :

.... وهو مثل الفـــــــــوم ....

وهناك صور برعت فيها الشاعرات كل البراعة ، ولا سيما في مجال الحض على الـــثأر ، حيـــن تشبه رجال قومها بالنساء إن تقاعسوا عن طلب الثأر ،خذ مثلا لذلك قول (كبشة) :

فإن أنتم لم تثأروا واتديْتُمُ — فمشُّوا بآذان النعام المصلَّم

ولا تردوا إلا فضول نسائكــم — إذا ارتملت أعقابهن من الدم

حقا ، إن المرأة باعث مهيج للشر المستطير ، ولعل ذلك لما في طبعها من الحزن والفجيعة على القتيل .

لقـــد أمعنـــت (كبشة) في رسم هذه الصورة الكريهة الحقيرة لرجال قومها حين يرضون بالدية ، فكانت لوحة محكمة الصياغة ، بارعة التصوير :

صورة حوض ورده رجال أعزة لا يرضون الدنيّة ، فلما صدر عنه هؤلاء الرجال، جـــاء دور النســـوة فوردنّـــه .. وهناك جماعة من الرجال يعلو وجوهَهم ذل وخزى وعـــار، ينـــتظرون صـــدور النســـاء عن الحوض حتى يردوه .. وهم حين يردونه يتسللون متلفتين يمينا وشمالا ، حتى لا يراهم أحد فيعيرهم بمذلّتهم وعارهم ، فلما وردوا الماء كان ملوثا بدماء أولئك الحيّض اللاتى اغتسلن فيه ، فشربوا كدرا وطينا ودما ...

وقريب من هذه الصورة تلك الصورة التى رسمتها ريشة (أم عمرو بنت وقدان) للقاعدين عن إدراك الثأر ، حين قالت :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكــــــم — فذروا السلاح ووحشوا بالأبـــرق

وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا — نُقَبَ النساء فبئس رهط المرهق

ألهاكم أن تطلبوا بأخيكـــــم — أكل الخزير ولعق أجرد أمحـــق

فجعلـــتهم نســـاء ، يكـــتحلون ويتزيون مثلهن .. وهى صورة مزرية ، كفيلة أن تـــقض مضاجعهم ، وتدفعهم دفعا أن ينهضوا لطلب الثأر ، وأن يثبتوا أنهم جديرون بحمل السلاح .

ثـم أبـت إلا أن تزهدهم في المطعم والمشرب ، فجعلته غصّة في حلوقهم ، حين صورتهم ــ وهم حريصون على متع الدنيا ــ مجتمعين حول إناء به بقايا من سمن أو زبد وقد أخذوا يلعقونه ..

وكانـت فـي البيـت الأول قـد طلبت إليهم أن يبتعدوا عن الإنس ،ويعيشوا مع الوحـش، لأن الـناس لن يكون لهم حديث سوى مذلّتهم تلك ، فيمسكون آذانهم في الرواح والغدوّ وينادونهم : يامن ارتضيتم العار .. يامن أهدرتم دم أخيكم .. فلا مفر لهم حينئذ إلا النهوض السريع حتى لا يكونوا بهذه الصورة ..

والشـعراء الجاهلـيون حيـن يـريدون بيان مدى حزنهم يوازنون بين فجيعتهم وفجـيعة (ذات البوّ) ... ومن المشهور في ذلك أبيات الخنساء في رائيتها ، وأبيات دريدبن الصمة في رثاء أخيه عبد الله ،ومتمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك .[١]

وهذه شاعرة الحماسة تشبه نفسه بناقة (عَجُول) يريعها صوت المهيب :

إذاما دعا الداعي عليا وجدتني　　　أراع كما راع العَجُولَ مهيب

فهى حين تسمع مناديا ينادى اسم (على) ترتاع ، كما ترتاع تلك العجول ، وهى الناقة التى فقدت وليدها .. والمهيب هو الذكر من الإبل ، قال طرفة في هذا المعنى:

تُريعُ إلى صَوْتِ المهيب وتتّقى　　　بذى خُصَلٍ رَوْعاتِ أكْلَفَ مُلْبِد

وفـي أشعار النساء في الحماسة استعارات أقل من التشبيهات ، وهى استعارات بسيطة من مثل قول الشاعرة :

هما يلبسان المجد أحسن لبسة　　　شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

*　　　*　　　*

---

(١) عقدتُ موازنة بين هذه الأشعار في أطروحتى للدكتوراه (شعر قبيلة بنى سليم) ، وكتابى من الأدب الجاهلى ..دراسة وتحليل ونقد .

٥-الموسيقى

أ.البحور المستخدمة :

البحر	عدد الحماسيات
الطويل	٢٥
الكامل	١٠
البسيط	٦
الوافر	٦
السريع	٥
المديد	٢
الرمل	٢
الرجز	٢
المتقارب	١

* وبذلــك لم تختلف حماسيات النساء في حماسة أبى تمام عما لوحظ في الشعر القديم من أن (بحر الطويل) يحتل المساحة الأولى على خريطة ذلك الشعر، بل إنه زاد على الثلث .

* تباينـــت الأوزان بيـــن الطول والقصر وإن كان الغالب الأوزان القصار ، لأنها تناسب عدم طول نفس الشاعرة .

* وهـــناك قصـــيدة تلفت النظر من حيث الوزن وهى قصيدة (أم السليك) ، قال التبريزى : [١]

قـــال أبـــو العلاء : هذا الوزن لم يذكره الخليل ، ولا سعيد بن مسعدة ، وذكره الـــزجاج، وجعله سابعا للرمل ، وقد يحتمل أن يكون مشطورًا للمديد وهو وزن نادر من أوزان الشعر[٢]

---

(١) جـ ٢ /٣٧

(٢) محقق المرزوقى ٩١٤.

" ومجــزوء الــرمل بحــر قصير جدا تتوالى تفعيلاته ، ويبدو هذا القصر في أن التفعــيلة الثانــية أقصــر مــن الأولى ، وهذا يشير إلى اتجاه تفعيلاته إلى القصر ، (فالحزن باد في هذه القصيدة بشكل واضح ،والنغمة فيها حزينة .." [١]

وهــذا القصــر يتناسب واختطاف الموت للسليك ..ثم إن القصيدة قد أخذت طابع الــثوران والعــنف ، فغمــوض مصير ابنها جعلها تشعر بهذا الاضطراب ، وبخفقان القلــب بيــن الأمــل والألــم الــيائس اللذين كشف عنهما سؤالها عن مصير ابنها (أمريض..) (أم عدو ..) (أم تولى ...) "[٢]

ب .القافية والإيقاع الداخلي.

وقــد تنوعــت قوافــي الحماسيات ما بين مطلقة ومقيدة .. ويلفت النظر في هذه القوافي :

* كســر حرف الروى في معظمها ، ويبدو أن هذه الكسرة جاءت مناسبة للنفس المنكسرة ، المكلومة المتحسرة .. لنتأمل ذلك في قول (بنت بهدل) :

دعا دعوة يوم الشرى يا لمالك ومن لا يُجَبْ عند الحفيظة يُكْلَمِ

فكلمة (يكلم) في آخر البيت ، تجد الكسرة في آخرها تضيف إلى معناها المعجمى إنكساراً وذلة وغلبة .. ثم قتْلاً ..

وقول كبشة على لسان أخيها :

.... **لا تعقلوا لهمْ دمــــــى**

.... **وأترك في بيت بصعدة مظلم**

فقولهــا (دمــى) فــيه استغاثة وندبة ، وكأنه يقوم بتكرير الكلمة مرة بعد مرة. و(مظلــم) وما فيه من كسر الميم يتفق مع حال تلك الروح المظلومة في ذلك القبر المظلم ، وبذلك وقع عليها كسر من القوم لابد أن يجبروه بإدراك ثأره .

---

[١] رثاء الأبناء في الشعر العربى ص ١٩٤ د / مخيمر صالح ، التفسير النفسى للأدب ٨٢ د / عز الدين اسماعيل .

[٢] نفسه.

وهــناك حماســيات أخــرى علـــى هذه الشاكلة ، ويبدو أنها سمة مميزة لشعر الشواعر، حيث نفوسهن الضعيفة ، وما فطرن عليه من قلة الجلد والتصبر.

* وقصــائد أُتْــبع رويهـــا هـــاء السكت ، فكانت مناسبة تمام التناسب لظروف القصيدة، مثل قول عاتكة بنت عبد المطلب .

.... وليكف من شر سماعه

.... في مجمع باق شناعــه

... الخ

فهـــاء الســكت تناسب الحسم والفصل في تلك المعركة ، كما تناسب انقطاع حياة أولــئك الــبغاة المعتدين الذين حشدوا حشودهم للقضاء على قريش ، فكان إسكاتهم إسكاتًا تامًّا .. وقد أحسنت الشاعرة ــ أو أبو تمام ــ خَتَم الأبيات بقفل مناسب حين قالت :

ومُجَدَّلاً غادَرْنــــــــــه بالقاع تَنْهَسه ضِبَاعُه

فهـــي نتيجة طبيعية للمعركة ، إذ قضى قضاء مبرمًا على أولئك ، وتُركوا ــ دون مبالاة ــ في (قاع) تنهشهم الضباع .

* وتكـــثر حروف المد واللين حين التوجع والشكوى .. وهذه الحروف " تفرض بطئا موسيقيا ، يضطر معه القارئ إلى التمهل الشديد وهو يقرأ الأبيات ، حتى ليكاد يقــف فيه عند كل كلمة ، بل عند كل حرف من حروفها ، وحركة من حركاتها ، كما يفرض عليه أن يعلو ويهبط مع أصواتها ، وكأنه يتذوقها تذوقا .. " [١]

وقــد بـــرزت هذه الحروف بروزًا قويًّا في مرثية (عمرة الخثعمية) حيث أتبعت الروى ألفا ، وذلك لأنها ترثى ابنيها ، تقول :

لقد زعموا أنى جزعت عليهما وهل جزع أن قلت : (وابأباهما)

هما أخوا في الحرب من لا أخا له إذا خاف يوما نبوة فدعاهما

---

[١] الشعر الجاهلى ٢٤٢ د / إبراهيم عبد الرحمن .

هما يلبسان المجد أحسن لبسة   شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

وهكذا إلى آخر الأبيات . فالشاعرة تفرض على القارئ أن يتمهل كثيرا في قراءة البيت ، بحيث لا ينتقل إلى البيت التالى إلا وقد أعطاه حقه من القراءة والتأمل وفهم مرادها ، فضلا عما توحى به هذه الحروف من الحزن العميق الذى يكسو الشاعرة ، وبذلك خلقت جوا نفسيا حزيناً أشركت القارئ معها فيه ..

والألـــف فـــي هذا المقام تقوم مقام فتحتين ،وهى — إضافة إلى ذلك — يمكن أن تكون بديلا عن أدوات النداء والندبة والاستغاثة ، ومن ثم كانت مناسبة كل التناسب لمقام الرثاء .

والنص زاخر بهذه المدات ، تأمل قولها (وابأباهما) تجدها كلمة قداحتشدت فيها هذه الألفات حشدا ، فكانت تنفيسا عن حزن عميق وأسى شديد .

* * *

كشاف

بحماسيات الشاعرات في حماسة أبي تمام

الباب	الشاعرة	رقم الحماسية		عدد الأبيات
		المرزوقي	التبريزي	
الحماسة	امرأة من طيئ (بنت بهدل بن قرفة)	٤٩	٥٠	٤
	كبشة اخت عمرو	٥٢	٥٣	٥
	كنزة أم شملة	٢٤٠	٢٤٢	٢
	كنزة أم شملة	٢٤١	٢٤٣	٢
	عاتكة بنت عبد المطلب	٢٥٠	٢٥١	٦
	امرأة من بني عامر	٢٥٢	٢٥٣	٣
	أم ثواب الهزانية	٢٥٥	٢٥٥	٦
المراثي	بنت فروة بن مسعود	٢٩١	٣٠	٢
	فاطمة بنت الأحجم	٣٠٨	٤٧	٦
	فاطمة بنت الأحجم	٣٠٩	٤٨	٤
	أم السليك (أو غيرها)	٣١٠	٤٩	٩ : ١٢
	جارية ماتت أمها	٣١٧	٥٦	٣
	أم الصريح الكندية	٣١٨	٥٧	٣
	صفية الباهلية	٣٢٦	٦٥	٤
	قتيلة بنت النضر	٣٣٢	٧١	٨
	امرأة من كندة	٣٣٨	٧٧	٢
	امرأة من بني أسد	٣٣٩	٧٨	٣
	امرأة	٣٦١	٩٩	٢
	زينب بنت الطثرية	٣٦٧	١٠٥	٩
	مية ابنة ضرار الضبية	٣٧٠	١٠٨	٢
	أم قيس الضبية	٣٧٣	١١١	٤
	امرأة ترثي أباها	٣٨١	١١٩	٢
	عمرة الخثعمية	٣٨٦	١٢٤	٩
	أخت المقصص	٣٩٠	١٢٨	٦
	عمرة بنت مرداس	٣٩١	١٢٩	٣
	ريطة بنت عاصم	٣٩٢	١٣٠	٤
	عاتكة بنت زيد	٣٩٣	١٣١	٣
	امرأة من طيئ	٣٩٤	١٣٢	٥
	العوراء بنت سبيع	٣٩٥	١٣٣	٣
	عاتكة بنت زيد	٣٩٦	١٣٤	٣
	امرأة من بني الحارث	٣٩٧	١٣٥	٣

الباب	الشاعرة	رقم الحماسية		عدد الأبيات
		المرزوقي	التبريزي	
الأدب	حرقة بنت النعمان	٤٤٩	٥٠	٢
النسيب	أمامة	٥٧٠	١١٥	٣
	وجيهة بنت أوس	٥٨٠	١٢٥	٥
الهجاء	امرأة من عائذة بن مالك	-	١٥	٣
	امرأة قتل زوجها	٦٤٣	٤٩	٤
	امرأة قتادة بن مغرب	٦٤٥	٥١	٤
	كنزة أم شملة	٦٦٨	٧٤	٧
	أم عمرو بنت وقدان	٦٧١	٧٧	٣
	عاصية البولانية	٦٧٢	٨٧	٣ ـ ٤
	غيرها	-	٧٩	٢
الأضياف والمديح	ليلى الأخيلية	٧٠٠	٢٧	٧
	ليلى الأخيلية	٧٠١	٢٨	٣
	ليلى الأخيلية	٧١١	٣٨	٢
	حبيبة بنت عبد العزى	٧١٦	٤٣	٥
	امرأة سالم بن قحفان	٧٦٨	١٢	٣
	أخت النضرين الحارث	٨٠٥	١٣٧	١
	صفية بنت عبد المطلب	٨٠٦	١٣٨	٣
	امرأة مني بني مخزوم	٨١٣	١٤٠	٣
	أخرى	٨١٤	١٤١	١
	الخنساء	٨١٥	١٤٢	٣
	امرأة من إياد	٨١٦	١٤٣	٢ ـ ٤
الملح	امرأة .	٨٣٠	٢	٦
	امرأة .	٨٣٩	١١	٢
	امرأة لأخرى	٨٤٤	١٦	٣
	جارية في نساء يتسابين	٨٥٩	٣٢	٣
	أخرى	٨٦٠	٣٣	٣
	أخرى	٨٦١	٣٤	٣
	أم النحيف .	٨٦٢	٣٥	٩
مجموع الأبيات		٢٢٨	٢٣٤	

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

١- شـرح ديـوان الحماسة ـ لأبى زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مطبعة حجازى ـ القاهرة .

٢- شـرح ديوان الحماسة ـ لأبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى ـ تحقـيق أحمـد أمين وعبد السلام هارون ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ط ثانية ١٩٦٨.

ثانيا : المراجع :

٣- أدب العـرب فـي عصـر الجاهلية ـ د / حسين الحاج حسن ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ ط أولى ١٩٨٤.

٤- الأدب فـي حماسة أبى تمام ـ أحمد ماهر البقرى ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .

٥- أضـواء على الأدب الحديث ـ د / أحمد الحوفى ـ دار المعارف ـ ط أولى ـ ١٩٨١م .

٦- الأغانى ـ للأصفهانى ـ ط دار الثقافة .

٧- أيـام العـرب في الجاهلية ـ محمد أحمدجاد المولى ، على محمد البجاوى، محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط الحلبى .

٨- بين الكتب والناس ـ عباس محمود العقاد ـ دار المعارف ـ ط رابعة .

٩- تـاريخ الأدب العربى ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة عبد الحليم النجار ـ دار المعارف ـ ط رابعة .

١٠- ثقافة الناقد الأدبى ـ د / محمد النويهى ـ ط ثانية ـ بيروت ١٩٦٩

١١- الحماسة .. السباعى بيومى ورفقاؤه ـ مطابع المصرى .

١٢- حماسة أبى تمام وشروحها ــ حسين محمد نقشة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٨٧م .

١٣- دراسة في حماسة أبى تمام ــ على النجدى ناصف ــ دار نهضة مصر للطبع والنشر ــ القاهرة .

١٤- دراسات في الشعر الجاهلى ــ د / أنور أبو سويلم ــ دار الجيل ــ بيروت، دار عمار ــ الأردن ــ ط أولى ــ ١٩٨٧م .

١٥- ديوان الخنساء .. دراسة وتحقيق د / إبراهيم عوضين ــ مطبعة السعادة ــ ط أولى ــ ١٩٨٥.

١٦- ديوان طرفة ــ دراسة وتحقيق د / على الجندى ــ دار الفكر .

١٧- رثاء الأبناء في الشعر العربى ــ د / مخيمر صالح ــ مكتبة المنار ــ الأردن ــ ط أولى .

١٨- رثاء الأبناء في الشعر العربى (رسالة دكتوراه ــ كلية اللغة العربية بالقاهرة ــ برقم ١٦٨٧) للباحث صلاح يوسف .

١٩- رياض الأدب في مراثى شواعر العرب ــ القسم الجاهلى ــ لويس شيخو .

٢٠- الشعر الجاهلى ــ خصائصه وفنونه ــ د / يحيى الجبورى ــ مؤسسة الرسالة ــ ط رابعة ١٩٨٣.

٢١- الشعر الجاهلى .. قضاياه الفنية والموضوعية . . د / إبراهيم عبد الرحمن محمد ــ الشركة المصرية العالمية للنشر ــ لونجمان ٢٠٠٠م .

٢٢- الشعر الجاهلى .. منهج في دراسته وتقويمه د / محمد النويهى ــ الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة .

٢٣- شعر الحرب في أدب العرب د / زكى المحاسنى ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦١م .

٢٤- شعر الرثاء في صدر الإسلام د / مصطفى الشورى ــ دار المعارف ــ ط أولى ١٩٨٦م .

٢٥- شعر الرثاء في العصر الجاهلى د / مصطفى الشورى . الشركة المصرية العالمية للنشر ــ لونجمان ــ ١٩٩٥م

٢٦- الشعر والشعراء لابن قتيبة ــ تحقيق أحمد محمد شاكر ــ دار المعارف ــ مصر .

٢٧- الشاعرة العربية المعاصرة . د/ عائشة عبد الرحمن ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة النشر ١٩٦٣م .

٢٨- شاعرات العرب .. بشيريموت ــ ط أولى ١٩٣٤م .

٢٩- العمدة ــ لابن رشيق ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ــ دار الجيل ــ بيروت ــ ط خامسة . ١٩٨١م

٣٠- الفخر والحماسة ــ حنا الفاخورى ــ سلسلة فنون الأدب العربى (الفن الغنائى) (٥) ــ دار المعارف ــ مصر .

٣١- في الأدب العربى الحديث ــ د / يوسف عز الدين ــ دار العلوم ــ الرياض ١٩٨١م .

٣٢- في الشعر الإسلامى والأموى ــ د / عبد القادر القط ــ دار النهضة العربية ــ ١٩٨٧م.

٣٣- فيض الخاطر ــ أحمد أمين ــ مكتبة النهضة المصرية.

٣٤- القضايا الأدبية والنقدية في شرح المرزوقى لديوان الحماسة ــ د /فتحى محمد أبو عيسى ــ دار المعارف ــ مصر ــ ١٩٨٣م. .

٣٥- المرأة في الشعر الجاهلى د / أحمد الحوفى ــ ط ثانية ــ دار الفكر العربى .

٣٦- مراجعات في الآداب والفنون ــ عباس محمود العقاد ــ المطبعة العصرية بمصر .

٣٧- مقالات في الشعر الجاهلى ـ يوسف اليوسف ـ دار الحقائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر ـ ط ثانية ـ ١٩٨٣م.

٣٨- من حديث الشعر والنثر د / طه حسين ـ دار المعارف ـ مصر .

٣٩- منهج المرزوقى في الخصومة النقدية حول أبى تمام ـ د/ مصطفى عليان ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط أولى ١٩٨٦م .

٤٠- النثـيرة والقصـيدة المضـادة ـ محمد ياسر شرف ـ النادى الأدبى ـ الرياض ـ ١٩٨١م.

٤١- النقد الأدبى الحديث د / محمد غنيمى هلال ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة

*   *   *

المحتويات


شركة ناس للطباعة
٢٢ ش رشدى عابدين - ٣٩٢٥٢٧٦